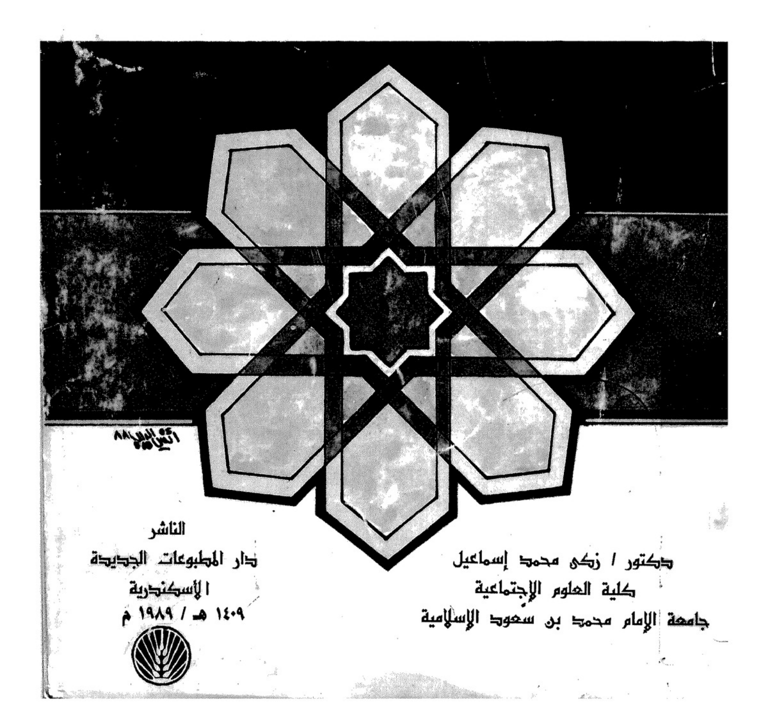
بين
العلوم الإجتماعية والسلوكية



دكتور / زكى محمد إسماعيل
كلية العلوم الإجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الناشر
دار المطبوعات الجديدة
الأسكندرية
١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م

اهداءات ٢٠٠١
ا.د. أحمد أبو زيد
أنثروبولوجي

نسخة هدية لأستاذي الأخ الفاضل

الأستاذ الدكتور أحمد بوزيد

مع خالص تحياتي

بين العلوم الاجتماعية والسلوكية

دكتور
زكي محمد اسماعيل

كلية العلوم الاجتماعية

جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية

١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م

الناشــر

دار المطبوعات الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر العلوم السلوكية والاجتماعية من أهم ميادين المعرفة المعاصرة ، ذلك لأن دراسة الانسان والتعمق فى سلوكياته واجتماعياته وأهدافه التى يسعى اليها من أهم الأمور التى تعتمد عليها بل وتنبثق منها الحضارة المعاصرة مهما أغرقت فى اختراع التكنولوجيا واتساع توظيفها وتشعيب أنماطها وتنويع أجهزتها ، فليس ذلك كذلك إلا لأن صانع التكنولوجيا هو الانسان للانسان ومن هذا المنطلق الحضارى فالانسان هو الوسيلة والهدف ، السبب والغاية ، ولا يمكن أن يستقيم أمره ، ويتقى خطره إلا بدراسة سلوكه وفعالياته ، أهدافه وطموحه وغاياته ، وكل هذه أمور يضطلع بدراستها ، وتسعى لاستكشاف أسبابها وغايتها العلوم السلوكية والاجتماعية ، والتى تندرج برمتها تحت مفهوم العلوم الانسانية لقد ظلت ــ ومازالت ــ تدرس العلوم الاجتماعية والسلوكية كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد والسياسة والتربية والتاريخ والجغرافيا السلوكية كل منها بمعزل عن الآخر ، إذ يهتم بكل منها من تخصص فى هذا العلم أو ذاك مع أنها تندرج فى مصفوفة أو مجموعة واحدة هى العلوم الانسانية التى يصعب فصل أى منها عن الآخر لأنها تلتقى حول محور واحد هو الانسان وسيلة وغاية ، بداية ونهاية .

ومن هذا المنطلق سعدنى فى أن تكلفنى كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن مسعود الاسلامية بالرياض بأن أدرس هذه المادة لطلاب قسم المكتبات والمعلومات منذ سنوات عديدة ، حيث اهتمت بتدريس هذه المادة من منظور تكاملى يجمع العلوم الاجتماعية والسلوكية فى إطار واحد هو اطار العلوم الانسانية موضحا مدى الترابط والتداخل بل والتكامل بين هذه العلوم ومدى وحدة المنهج العلمى اتساقه دراستها تبيان أنه مهما استقل كل علم منها بموضوعاته فإنها فى

النهاية |لاتنفصل الا لتتصل فى غاية واحدة هى فهم سلوك الانسان فهما علميا دقيقا . وهنا لايمكن الفصل بين العلوم الانسانية فصلا حاسما كما هو الحال فى العلوم الطبيعية التجريبية كالكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وعلم وظائف الاعضاء إذ لكل من هذه العلوم موضوعه ومنطقة نفوذه وفروضه وقوانينه التى لايتداخل أو يشاركه فيها علم آخر . أما العلوم الاجتماعية والسلوكية فإن منطقة نفوذها تتدرج فى سياق العلوم الانسانية ككل والتى تهدف — كما أسلفنا — الى فهم الانسان منها علميا موضوعيا بالقدر الذى يتيحه مدى التقدم العلمى المنهجى فى هذا الشأن وهذا الكتاب الذى نقدمه للقارىء المتخصص وغير المتخصص محاولة للدراسة التكاملية فى العلوم السلوكية والاجتماعية . نأمل أن تكون بداية على الطريق ، وأن يتلقى المؤلف من زملائه المتخصصين فى هذه العلوم مرئياتهم النقدية للكتاب والتى — لاشك — ستكون إشارة يتطلع إليها ويهتم بها ويستفيد منها ، فالنقد الجاد الموضوعى الهادف هو السبيل دائما للسير نحو الأكمل والأمثل ، والله الموفق والهادى الى سواء السبيل .

دكتور
زكى محمد اسماعيل
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
الرياض

الفصل الاول

المدخل العلمى لدراسة العلوم السلوكية والاجتماعية

رغم أن العلوم الاجتماعية والسلوكية تعد فرعا من العلوم الإنسانية التى تدرس الانسان دراسة متكاملة إلا أن العلوم السلوكية Behavioral Sciences تعد تعبيرا حديثا فى ميدان العلوم الانسانية ، وإن اكتسب المفهوم أنتشارا واسعا فى دائرة هذه العلوم وقد اختلفت العلماء حول مفهوم هذه العلوم وماتحتويه من مجالات البحث والاهتمام .

يرى فريق منن العلماء أن تندرج العلوم السلوكية أو « المسلكية » فى دائرة العلوم الاجتماعية وأن هذه الأخيرة تشكل .

الانثروبولوجيا (علم الانسان) Anthropology
علم الاجتماع Sociology
علم النفس Psychology
العلوم السياسية Political Sciences
للاقتصاد Economics
التاريخ History
الجغرافيا السلوكية Behavioral Geography

ومن الاهمية الإشارة إلى أنه ينبغى التفرقة بين استقلال العلوم التجريبية وتداخل العلوم السلوكية والإنسانية بعامة ، ذلك لأن العلوم الطبيعية يسهل تحديد مضمون كل منها والبحث فيه تجريبيا من خلال منهج استقرائى واضح المعالم ، وبهذا يسهل فصل علوم الطبيعة والكيمياء والنبات كل عن الآخر على أساس المجال المتميز لكل من هذه العلوم على حدة ، بينما يصعب ذلك فى مجال العلوم الإنسانية والتى تبحث جميعها فى الإنسان وسلوكه وحياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

والأخلاقية ، الأمر الذى يصعب معه الفصل الحاسم بين الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم النفس أو علم الاجتماع مثلا كما سنفصل القول بعد . بل إن هناك تداخلا بين هذه العلوم والعلوم التجريبية كالانثروبولوجيا التى يدرس جانب منها فى إطار العلوم التجريبية وهو فرع الأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية Physical Anthropoligy بينما تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية فى إطار العلوم الإنسانية . وبينما يدرس علم النفس الحيوانى والتجريبى فى إطار العلوم التجريبية ، فإن علم النفس الاجتماعى يندرج تناوله فى إطار العلوم الإنسانية .

لهذا فإن هذا التداخل أو بمعنى أدق التكامل بين العلوم السلوكية والاجتماعية والانسانية جعل العلاقة بينها علاقة الكل بالجزء أو الجنس بالنوع ، كما جعل هناك تكاملا بين العلوم السلوكية والعلوم التجريبية فى كل من الانثروبولوجيا وعلم النفس كما أشرنا .

ورغم هذا التداخل التكاملى فى مجال هذه العلوم فإن هناك قاعدة أساسية يمكن الاستناد إليها للتمييز بين علوم السلوك من ناحية وغيرها من العلوم الاجتماعية والانسانية من ناحية أخرى . وهى أن العلوم السلوكية تتميز بصفتين أساسيتين هما :

(١) أن يكون موضوع البحث الأساسى فيها هو السلوك الإنسانى كائنا ما كانت طبيعة هذا السلوك ، وبهذا يندرج تحت مسمى هذه العلوم كل من الأنثروبولوجيا على أساس أنها كما يعرفها بعض العلماء علم طبائع البشر ، أو « دراسة الإنسان وأعماله » وكذلك علم النفس الذى يدرس السلوك الانسانى فرديا كان أم جماعيا ، ظاهريا أم استبطانيا وعلم الاجتماع الذى يختص بدراسة النظم والظواهر والعلاقات الاجتماعية من حيث تتجلى فى صور سلوك جماعى فى مجتمع ما ، وكذلك التربية التى تدرس طبيعة السلوك الانسانى من حيث تقويمه وتطوره وضبطه .

(٢) أن تتم دراسة هذا السلوك بالاعتماد أساسا على الطريقة العلمية المنهجية .

وكما أشرنا فإن علم النفس الحيوانى ، وإن كانت تنصب دراسته على دراسة سلوك الحيوان بالطريقة العلمية إلا أن هذه الدراسة ليست غاية فى ذاتها وإنما وسيلة لفهم مظاهر سلوك الإنسان من خلال المنهج المقارن من ناحية وطبيعة الغرائز والسلوك الفطرى الذى يجمع بين الانسان والحيوان من ناحية أخرى .

الهدف من دراسة العلوم السلوكية

فى الواقع أن الهدف من دراسة العلوم السلوكية هو نفس الهدف من دراسة العلوم الاجتماعية والانسانية بصفة عامة أى العمل من خلال استخدام المنهج العلمى فى هذه العلوم — على استنباط القوانين أو المعايير أو القوانين أو القواعد أو التعميمات التى تحكم سلوك الإنسان وتفسره تفسيرا عليا علميا لانظريا تجريديا كما كان الحال فى العصر اليونانى والعصور الوسطى . وهى تعميمات يطمع العلماء إلى أن تكون قابلة للتحقيق Verification بمعرفة باحثين آخرين ، أى أن الاجراءات المنهجية للوصول إلى هذه التعميمات ينبغى أن تكون معلومة وصالحة لإعادة التطبيق والتحقيق[1] .

وعلى أية حال فإذا كانت العلوم السلوكية تتناول بالدراسة والبحث سلوك الإنسان فردا أو فى جماعة تتفاعل مع العوامل البيئية والثقافية والاجتماعية للتحكم فى السلوك وضبطه وتوجيهه كغاية عملية يهدف إليها العلم فإن هذا قد أصبح المدخل الهام والأساسى لنجاح المؤسسات الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . فدراسة السلوك فى المجتمع تتضمن الاعتراف بإن الفرد هو الركيزة الأساسية فى المجتمع يتفاعل معه وينفعل به .. ويؤثر ويتأثر به ولهذا ركزت الدراسات المعاصرة فى مجالات إدارة الأعمال المختلفة على التعرف على حقيقة العوامل المختلفة التى تحد سلوك الفرد وتحمله على أن يتصرف فى ناحية ما دون أخرى ، أو بأسلوب ما من الأساليب فى مواقف معينة سواء كان هذا الفرد منتجا أم مستهلكا . زارعا أم صانعا ، قائدا أم جنديا .

---

(١) على السلمى . السلوك الانسانى فى الإدارة دار المعارف . القاهرة ١٩٧٢ ص ٣٧ ، ٢٨

ومن هذا المنطلق أصبحت تطرح تساؤلات عديدة أثارتها العلوم السلوكية فى مجال الانتاج والاقتصاد والسياسة الإدارة منها : ماهى دوافع العمل والاستهلاك ؟ ماالمؤثرات التى تؤثر فى عادات الشراء ؟ ما العوامل التى تساعد على نجاح مشروع ما ؟ كيف يتخذ الفرد قراراته ؟ ماالأسس النفسية والاجتماعية التى ينبغى أن تتعامل بها الدول مع دول أخرى صديقة أم غير صديقة ؟

لقد ظلت المفاهيم التقليدية للسلوك الإنسانى ترتكز على مبادىء وافتراضات غير علمية لم تثبت صحتها ، وكانت تلك الافتراضات تصور الفرد على أنه كائن مندفع بغرائزه الفطرية لأعماله وسلوكه دون السيطرة على تلك الأعمال أو التحكم فى هذا السلوك ، وقد اتضح خطأ هذه النظرة حين واجهت إدارة ومشاكل الاقتصاد ومسائل السياسة مشكلات نشأت عن قصور الفهم للسلوك الانسانى وعجز المصادر التقليدية عن أن تقدم معلومات صحيحة وحلولا متكاملة حول طبيعة الفرد وسلوكه من خلال نظرة موضوعية منهجية . وكانت البداية من خلال علم النفس وظهور فرع جديد به هو علم النفس الصناعى industrial psychology حيث أسفرت أبحاثه عن فهم جوانب أساسية من التكوين النفسى للفرد كالدوافع Motives والاتجاهات Attitudes مما حقق تقدما فى مجالات إدارية واقتصادية هامة كعمليات الاختيار Selection والتوجيه المهنى ، كما كان لعلم النفس أثره الكبير فى مجالات السياسة والاقتصاد والادارة وأبحاث الرأى العام والاعلان والدعاية والحرب النفسية ، كما وجدت الجوانب الاجتماعية فى السلوك الانسانى أهميتها وذلك كتأثير العائلة والجماعات المرجعية RefernceGroups (كجماعات الأصدقاء وزملاء العمل والنادى) وأثر العلاقات الاجتماعية التفاعلية بين الأفراد فى سلوك كل منهم ، كما كان لعلم الاجتماع الصناعى أثره الكبير فيما قدم للادارة والتجارة والصناعة من معلومات متجددة وهامة عن الظروف الاجتماعية المؤثرة فى سلوك وإنتاجية العمال الصناعية .

وقد كان للأنثروبولوجيا والدراسات الحقلية الأثر الكبير فى تقديم معلومات هامة عن طبيعة سلوك الجماعات المختلفة بدوية وحضرية وصناعية بالاضافة إلى ما

أسفرت عنه من تبيان مدى الأثر التفاعلى بين الفرد والبيئة الأمر الذى استفادت منه — إلى حد كبير — ميادين السياسة والاقتصاد والادارة فى كافة بلاد العالم متطورة ونامية على السواء .

من هذا المنطلق أصبحت العلوم السلوكية والاجتماعية مادة أساسية ينبغى على كل دارس أن يلم بها أيا كان تخصصه . وإذا كان هذا أمرا طبيعيا فى الكليات والمعاهد المتخصصة فى العلوم الاجتماعية والانسانية مثل كليات الآداب والعلوم الاجتماعية والانسانية والتربوية فإنها أصبحت كذلك مادة أساسية فى بعض كليات الطب والعلوم الطبية . وذلك لأن الطبيب ومساعده والممرض ينبغى أن يكونوا على معرفة بالسلوك الإنسانى بعامة وبسلوك المريض الذى يتعاملون معه ، ويهتمون به ، ويسهرون على علاجه بصفة خاصة . وعلى هؤلاء أن يدرسوا دراسة علمية كيف يكتسبون ثقة المريض واطمئنانه اليهم وتنفيذ نصائحهم له وعلاجهم إياه ، وهذا لايتم إلا إذا درسوا الخلفية النفسية والاجتماعية للمشكلات الجسمية[1] ، والأثر المتبادل والفعال بين نفسية المريض وتأثر جسمه بتلك الحالة النفسية والمزاجية التى التى يكون عليها قبل وأثناء المرض . ذلك لأن الاكتفاء بدراسة التقدم التكنولوجى وحده فى مجال تدريس الطب لايكفى مهما بلغ مستوى الدراسة ، « فالمريض » ليس هو « الحالة » أو العضو المصاب فى جسده فقط ، وإنما الإنسان ككل . والذى يحتاج إلى من يعالجه وكيف وبماذا ، ومتى سينتصح بنصيحة الطبيب ومتى يرفضها .

وقد أثبتت الابحاث الإكلينيكية العديدة إلى أن هناك ارتباط عاطفيا بين الانفعالات والعاطفة من ناحية وبين صحة الجسم أو مرضه من ناحية أخرى لدرجة أن عديدا من الأطباء المعاصرين يرون أن الفكر الطبى الذى يشجع ممارسيه على مزيد من التخصص الدقيق فحسب سيؤدى فى النهاية إلى تخريج أطباء « الحالة » وحدها وبهذا يندر الطبيب « الحكيم » الذى لايكون مجرد مداو

(١) منير حسين فوزى . العلوم السلوكية والإنسانية فى الطب . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٢ . المقدمة ص ٣

فقط وإنما مرشد وموجه وأهل ثقة وصديق للمريض بجانب مهنته الأساسية مداويا له ، وشافيا — بأمر الله تعالى — لمرضه . ويرى هؤلاء أن التقدم التكنولوجى الطبى والذى يؤدى إلى أنشاء المؤسسات العلاجية الضخمة التى تستوعب الجموع من المرضى سيحول كلا منهم إلى مجرد « حالة » بعيدة عن العلاقة الإنسانية والنموذج السلوكى الأمثل بين المريض والطبيب ، ولهذا ينبغى — مع العناية بالتقدم التكنولوجى الطبى — توجيه الاهتمام الأكبر إلى البيئة الصحية بما تشتمل عليه من مفهوم اجتماعى وثقافى وسلوكى بالإضافة إلى البرامج الصحية الوقائية .

إن الإحساس بالأمل ، وبقوة الإيمان كمفاهيم يبثها الطبيب مع مريضه من الأمور الأساسية التى تساعد غى تقدم العلاج والإسراع إلى الشفاء بإذن الله .

وانطلاقا من هذه المعانى تظهر بوضوح أهمية دراسة العلوم السلوكية والاجتماعية لا فى محيط تخصص العلوم الإنسانية وحدها ، وإنما فى تخصصات العلوم التجريبية التى تحمل الطابع الإنسانى كالطب العلاجى والوقائى والصحة العامة .

ولما كانت العلوم السلوكية تندرج فى سياق المعرفة البشرية بصفة عامة فإن المشتغلين بعلوم المكتبات والوثائق والمعلومات أصبحوا كذلك فى مسيس الحاجة إلى الإلمام بطرف ما من هذه العلوم التى يتعاملون وإياها فى إطار « الببليوجرافيا » « مصادر المعلومات » لاسيما وأن العلوم السلوكية والاجتماعية يصعب الفصل الحاسم بين موضوعاتها — كما سبق أن أشرنا — إذ إنها تدرس الإنسان من حيث سلوكه وعلاقاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية . الأمر الذى يستلزم من المتخصص فى حقل العلوم المكتبية والوثائقية أن يدرس مفاهيم هذه العلوم وطبيعة موضوعاتها ومجال تخصصاتها ليستطيع التفرقة بين علومها ولتساعده فى فهم رغبات الباحثين فى تخصصاتها من حيث نوعية المعرفة وطبيعة الموضوع ومجال التخصص الذى يبحثون فى إطاره . ذلك لأن تسجيل المعرفة وتناقلها والتعريف بها والإعلام عنها يحتاج إلى إلمام بنوعية هذه المواد التى يقوم بتسجيلها وتصنيفها

وفهرستها سواء تمثل ذلك فى « المواد المكتبية » أو « أوعية المعلومات » كالحوليات والدوريات والمجلات العلمية والتقاويم والتقارير ومجلات الجمعيات والرسائل العلمية الجامعية والبحوث الكاشفة من محطات التجارب ومعاهد البحوث وغيرها[١] .

ومن هذا المنطلق أصبحت العلوم السلوكية ناتجا للتكامل والتوحد فى ميدان العلوم الإنسانية المتشعبة الأبعاد والتى يجمعها دراسة السلوك الإنسانى ، بعد أن كانت هذه العلوم تدرس فى إطار منعزل عن بعضها البعض كالاقتصاد والسياسة والاجتماع والأنثروبولوجيا وبهذا أصبحت المناداة بدراسة العلوم السلوكية فى إطار العلوم الإنسانية دراسة شاملة متكاملة أمرا أساسيا فى تناول هذه العلوم من منظور تكاملى يؤدى لفهم السلوك الإنسانى فهما صحيحا ولتحقيق هذا الهدف ينبغى أن تتميز هذه العلوم بالخصائص التالية[٢] .

(١) دراسة العلوم السلوكية دراسة شاملة لكل مظاهر وأبعاد وأطر السلوك الإنسانى دون اقتصار على أحد جوانبه ، فهذا التكامل الشمولى فى الدراسة أمر أساسى فى فهم سلوك الإنسان فهما أوفر وأدق وهذا بدوره يؤدى إلى تفسير أشمل وأوضح لمسببات السلوك .

(٢) الاعتماد على المنطق العلمى وأساليب البحث المنهجية ، مما يؤدى إلى تحديد الظواهر السلوكية ووضع الفروض وتجميع المعلومات لاختبار تلك الفروض ومن ثم التوصل إلى حقائق ومفاهيم تفسر السلوك تفسيرا علميا لاظنيا .

(٣) تحقيق عملية التكامل فى مصادر المعرفة . ذلك لأن العلوم السلوكية ــ كما سبق أن أشرنا ــ تستمد مبادئها الأساسية من علوم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والسياسة والاقتصاد والأخلاق والتربية بدرجات متباينة .

وبهذا تتركز أهداف العلوم السلوكية فى تفسير وتحليل مظاهر سلوك الانسان

---

(١) أنور عمر . مصادر المعلومات فى المكتبات . دار المريخ الرياض ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ .ص ١١ ، ١٢

(٢) على السلمى . مرجع سابق ص ١٥ .

فردية كانت أو اجتماعية ظاهرة أم باطنة للوصول إلى التعميمات أو النتائج العامة التى تخضع لها هذه العلوم . وبالتالى إمكان تفسير السلوك الإنسانى تفسيرا علميا .

.وإذا كان الهدفان السابقان نظريين فى نوعهما فإن هناك هدفا تطبيقيا يتركز فى بناء النماذج التى تساعد الإداريين والسياسيين والاقتصاديين والتربويين فى السيطرة على أنماط السلوك وتوجيهها الوجهة المنشودة .

ومن خلال هذا الإطار التحليلى يتضح أن العلوم السلوكية والاجتماعية فرع من العلوم الإنسانية والتى يقصد بها مجموعة الدراسات التى تستخدم المنهج العلمى فى دراسة مظاهر النشاط المختلفة التى تصدر عن الإنسان كفرد وكجماعة أو مجتمع »[1] .

وحول طبيعة المنهج العلمى فى العلوم الإنسانية . ينبغى الإشارة إلى أن المنهج العلمى هو من حيث مقوماته الأساسية فى أى مجال يستعان به سواء فى دراسة علم التشريح أو الكيمياء أو الضوء أو سلوك العامل أمام الآلة أو دراسة النموذج الثقافى فى مجتمع ما .

إن الباحث فى هذه المجالات جميعها يعتمد فى دراسته على المشاهدة أى مشاهدة وقائع محددة سواء كانت فى مختبر للكيمياء أو أبحاث الفضاء أو دراسة للانفعالات أو اتجاه الرأى العام المهم أن تتم الملاحظة العلمية على قدر من الدقة والموضوعية .

لهذا فإن الحديث عن العلوم الإنسانية على أنها دراسات نظرية تقابل الدراسات التجريبية ينطوى على خطا واضح فى المفهوم المعاصر للعلوم الإنسانية وبخاصة جميع فروع علم النفس وعلم الإنسان وعلم الاجتماع . لأن تلك علوم تعتمد على الدراسات التجريبية ، وإن اختلف معنى التجريب وطبيعته فى العلوم الفيزيقية حيث يتم فى إطار المختبرات والمعامل وحدها ، وهو كذلك فى علم النفس

(١) مصطفى سويف . نحن والعلوم الانسانية . الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٩ ص ٨ .

التجريبي والحيواني ، ولكنه في علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية يتم عبر المجتمع وفي إطاره ومن خلاله .

وهنا يمكن القول بإن العلوم الإنسانية خاصة تلك التي أشرنا إليها تعتمد على الدراسات الموضوعية التي تقوم على أساس الفرض العلمي المبني على تعميم أو نظرية ما ، ثم اختبار صحة الفرض بالوسائل المنهجية المعروفة تمهيدا للوصول إلى التعميم أو النظرية أو القانون المفسر للظاهرة موضوع البحث .

وعليه فالعلوم الإنسانية تخضع بمعنى ما للتجريب العلمي بما تحمله الكلمة من معنى محدد في تاريخ العلوم . ولكن الفرق الأساسي بينها وبين العلوم الطبيعية والبيولوجية هو فرق في أسلوب التجريب ودرجة التقدم فيه ، ومدى الدقة البحثية التي تتمثل في مقدار الخطأ المقبول في نتائج التجارب أو نتائج استخدام بعض المقاييس ، وليس فرقا في أن العلوم الإنسانية دراسات تأملية تجريدية بينما علوم الطبيعة والبيولوجيا علوم تجريبية .

لقد كانت الدراسات الإنسانية تأملية حتى بداية القرن التاسع عشر ولكنها تدرجت في استخدام المنهج التجريبي رويدا رويدا وانسلخت عن الفلسفة موضوعا ومنهجا حتى وصلت الى ما هي عليه الآن على النحو الذي سنستعرضه في فصل قادم .

الفصل الثانى

نشأة الفكر الاجتماعى لدى الانسان البدائى

طالما ردد الفلاسفة والاجتماعيون أن الانسان حيوان ناطق أى مفكر واجتماعى أى يعيش فى مجتمع وان كان الانثروبولوجيون أخيرا لايوافقون على هذا لما اسفرت عنه بعض الأبحاث الدراسية الحقلية أو النفسية من أن بعض الحيوانات تفكر بمعنى ما كما انها تعيش فى مجتمع من نوعها أو مع الانسان نفسه ولهذا عرف الانثروبولوجيون الانسان بانه حيوان ثقافى أى له ثقافة معينة تعبر عن القيم والتقاليد والعادات والشعائر والطقوس التى يصنعها الانسان بفكره . وان اختلف نوع هذه الثقافة فى الزمان والمكان تبعا لمستوى الانسان الحضارى إلا أنها تظل معبرة عنه ودليلا عليه ولهذا فإن للانسان ثقافته المادية التى تتمثل فى الآلة أو التكنولوجيا التى يباشر بها حياته سواء كانت رمحا للصيد أو حجرا لاستخراج الشرارة من حجر آخر أو محراثا لتسوية الارض أو شادوفا لنقل المياة أو « موتورا » لتحريك الآلة أو حاسبا آليا « كمبيوتر » إن الانسان بكل هذه الوسائل على اختلافها فى مستوى ودرجة التحضر ظل يتعامل معها مباشرا ثقافة بدائية كانت أو بدوية قروية أو حضرية كما باشر الانسان منذ خلقه الله بشرا سويا طقوس وشعائر دينية مختلفة تمثلت فى عبادة مظاهر الطبيعة والطقوس الروحية التى ظنها أساس الحركة والحياة فعبدها حتى هبطت عليه الأديان السماوية فآمن بها وقد صحب كل هذا قيامه بمختلف الشعائر والطقوس والاحتفالات الدينية وغيرها من وسائل ثقافته اللامادية .

وإذا كان بعض الفلاسفة يرون أن مراحل التفكير البشرى المزدهر بدأ بالعصر اليونانى على يد فلاسفة اليونان ويعارضهم اخرون فيرجعون اسس الفكر البشرى الناضج إلى الشرق القديم عبر حضاراته المزدهرة والى العصر الفرعونى الذى وصل بتطوره الحضارى شأوا بعيدا فى الفن الهندسى المعمارى المرتكز على عقيدة للايمان بالبحث والخلود بشرط أن يكون الجسم كما هو . والواقع أن مراحل الفكر

الإنسانى بدأت مع وجود الانسان نفسه بصرف النظر عن نوع هذا التفكير ومدى منطقيته واستوائه بالمقاييس الفلسفية المنطقية . بدأ الانسان حياته الفكرية وهويفكر ، ولكن لم يكن هذا التفكير فى نفسه فالتفكير فى النفس مرحلة متأخرة نادى بها الفيلسوف سقراط فيما بعد حين قال « اعرف نفسك بنفسك » وانما فكر الانسان الاول فى الكون العريض الممتد حوله ، وفيمن تربطه بهم علاقات اجتماعية ، الأمر الذى يجعلنا نقول أن أول مظهر من مظاهر التفكير الانسانى كان تفكيرا اجتماعيا ، وقد نشأ هذا التفكير عبر أداة موصلة هامة هى اللغة المشتركة بين الافراد ، ولهذا يدعوها العلماء والاجتماعيون بأنها أداة المواصلات الاجتماعية Social Commuication ويرى العالم الانثروبولوجرجى مالينوفسكى Malinouski ان اللغة نشأت أول مل نشأت عن طريق الأداء المشترك اثناء العمل الجماعى ، ويتفق معه فى ذلك العالم الفرنسى « كوفيليه » الذى يرى أن العمل المشترك هو الظاهرة الاولى بل الرابطة الاجتماعية الحقيقية التى تربط بين الافراد والتى نشأ عنها تدريجيا فيما بعد سائر العلاقات الاجتماعية على اختلاف مستوياتها .

لهذا يمكن القول بأن العمل المشترك وما تمخض عنه من تأثير جماعى لدى الأفراد العاملين فى المراحل المبكرة لحياة الانسان هـو الظاهرة الاجتماعية التى نشأت عنها الروابط والعلاقات الاجتماعية الاولية وتلك نشأ عنها فيما بعد مجموعة من العلاقات الاجتماعية المعقدة والمترابطة فيما بينها كعلاقات الاقتصاد والقرابة والمصاهرة والسحر والشعوذة وإقامة الحفلات للتقرب إلى القوى الخفية .... الخ وبهذا فان تفكير البدائى فى عالم الطبيعة كان يتم من خلال إدراكه وتنظيمه لعالمه الاجتماعى فى حالة سكونه واستقراره ، حركته وديناميته ، وعليه فان سلسلة التغييرات الاجتماعية لم تكن تتم إلا من خلال التناسق والتوازن بين العلاقات الاجتماعية والتكنولوجيا البشرية مرتبطة بالبيئة الطبيعية أى لم يحدث التغيير الاجتماعى من خلال أى من هذه العناصر الثلاثة دون العنصرين الآخرين وهذا يدحض التفسير الماركسى الذى يجعل أساس التغيير الاجتماعى هو الحياة المادية والاقتصادية وحدها ويزعم أنها العنصر الوحيد فى عملية تغيير المجتمعات دون اعتبارها للعوامل الاجتماعية والدينية والأخلاقية التى يرى فيها أمورا تابعة للجانب

الاقتصادى فى حياة المجتمع ، كما يختلف هذا الاتجاه الذى يربط بين العلاقات الاجتماعية والتكنولوجيا والبيئة الطبيعية كعوامل أساسية للتغيير عن نظرية عالم الاجتماع النفسى اميل دوركايم الذى يجعل الظاهرة الاجتماعية وحدها دون اية ظاهرة سواها — أساسا للتغيير والتطور الاجتماعى .

وبهذا يمكن القول بان الفكر وحده وعلى اختلاف مستوياته هو الذى يحرك الطاقات المبدعة للجماعات البشرية وبالتالى ينظم وينسق كيانها الفردى والمجتمعى معا وبقدر انطلاق الفكر وتحرره من قيوده ومعوقاته يكون التوافق بين العوامل البيئية الطبيعية من ناحية والعوامل الاجتماعية من ناحية أخرى بمعنى أنه كلما كان الفكر حرا استطاع أن يعمل على تغيير وتطوير المجتمع من شتى جوانبه الاقتصادية والسياسية وغيرها بعكس المكبل بالقيود والذى لايستطيع أن يحرك للقيام بأى تغييرا أو تطوير ، وقد لاتكون القيود مفروضة من هيئة سياسية أو اجتماعية ما وانما يكون المجتمع منغلقا على نفسه أى أسير قيم وعادات قديمة بالية لايستطيع أن يتحرر من قيودها ، تماما كما كان عرب الجاهلية حين عارض بعضهم دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام رغم علمهم التام بأن الرسول ما عهدوه الا صادقا وبأن اصنامهم لاتنفع ولاتضر وبالتالى اتخاذها آلهة تعبد وكان ردهم « انا وجدنا آباءنا لها عابدين » وهنا يكون القيد المكبل للفكر أن ينطلق ويتحرر من اساره ولهذا حث الله سبحانه وتعالى البشر ان يتفكروا فى خلق السموات والارض وما خلق الله فى عديد من آيات القرآن الكريم .

وانطلاقا من هذا المفهوم يمكن القول بان حرية الفكر هى أساس هام للتغيير الاجتماعى والثقافى فى كافة المجتمعات وسائر الثقافات وبقدر هذا التحرر والنظر الثاقب فى الامور يمكن أن يكون التغيير والتطوير فى المجتمع .

وهنا يمكن أن نتساءل عن أول إنتاج فكرى انسانى ؟

فى الواقع إن أول إنتاج انسانى فكرى هو الاسطورة البدائية والتى اشتقت مصادرها من طبيعة الحياة الاجتماعية نفسها التى عاشها الانسان البدائى فالطبيعة

فى مخيلته صورة لعالمه الاجتماعى فى كل صورها وإذا كانت مبادىء الفكر المنطقى تنادى بمبدأ عدم التناقص والتناسق الفكرى حيث لايمكن أن يكون الشيء موجودا وغير موجود فى وقت واحد فان الانسان البدائى كان يرى عكس ذلك اذ يؤمن بمبدأ التناقص وبعديد من المبادىء والمقولات والتصورات الاخرى التى لاتتفق مع مبادىء المنطق القديم والحديث معا ، وقد دعا هذا العالم الفرنسى « ليفى بريل » لان يقول بان العقلية البدائية غير منطقية ويسوق امثلة عديدة ليدلل بها على صدق رأيه هنا . كما يرى ان هذه العقلية تتناقص مع تفكيرنا ، وإنها غيبية فى كل تصوراتها ، ومتناقصة فى تعليلاتها . كما انها غير واعية بفكرة ثبات القوانين الطبيعية ولكن الدراسات الحقلية الانثروبولوجية اثبتت عكس هذا واكدت أن البدائى فى تصوراته المتسقة مع تفكيره هو الذى يخالف طبيعة تفكير الانسان المتحضر وقد اكد العالم الانثروبولوجى « مالينوفسكى » من خلال دراساته الحقلية فى مجتمع « التروبرياند » ان القواعد التى تتبعها الجماعات البدائية فى انتاجها وتبدو على انها ممارسات سحرية تكون فى الحقيقة مستقلة تمام الاستقلال عن القداسات الغيبية وبهذا فليس من الصحيح الاعتقاد بان الانسان فى حياته البدائية كان يعيش فى عالم صاخب مضطرب يختلف فيه الواقع بغير الواقع أو تمتزج فيه الحقيقة أو تلتقى فيه الامور الغيبية بالشعورية الادراكية وذلك لان مايقوم به البدائى من سحر وشعائر طقوسية لاتعوقه عن القيام بجهوده العملية لتحقيق حياته . بل انه يعتقد أنه بهذه الطقوس والشعائر يقدم القرابين للقوى الغيبية التى يمكن بل انها تعينه على شئون حياته .

بهذا يمكن القول بان الحياة بالنسبة للبدائى كل متصل ومستمر وإذا كنا نضع حدودا فاصلة بين مملكة النبات والحيوان والانسان وبين الانواع والسلالات ، فان الفكر البدائى لايضع مثل هذه الحدود والفواصل بينها وانما هو فكر انسيابى يتسم بإن نظرية للحياة نظرة تركيبية وليست تحليلية تصنيفية ، ولهذا يمزج الفكر بالعمل معا على أساس ارتباط حياته بالمجاليين فى وحدة واحدة .

ومن الاهمية الاشارة الى أن محاولة التفكير فى نشأة الانسان وعلاقته ببيئته

الطبيعية والاجتماعية كان فى مقدمة الامور التى شغلت فكر الانسان البدائى ، وذلك ليتحسس الوسائل التكنولوجية البدائية التى يمكن ان تساعده على معالجة بيئته الطبيعية عن طريق المحاولة والخطأ بغية الحصول على ما يسد حاجته المعيشية الضرورية قادحا فى ذلك زناد فكره ، متبعا كافة الوسائل التى تحقق له ذلك على اساس أن الحاجة أم الاختراع ــ ولهذا فقد واصل الانسان تحسين وتطوير وسائله التكنولوجية حتى يحقق استكمال وجوده الاجتماعى ، كما أنه حاول من ناحية أخرى أن يفكر فى أصل وجوده وذلك من خلال فهمه وتسييره للتنظيمات العشائرية والجماعية التى نشأ فيها نشأة تلقائية ، ومن المتوقع أن تكون تصوراته الذهنية وتأويلاته التخمينية التقت كلها عند تصوره لوحدة الوجود بين العالمين الاجتماعى والطبيعى وأن هذا اكتسى بعد بصفة دينية أو غيبية جعلته يعتقد أن كل ما يرى من مظاهر طبيعية أو اجتماعية أنما تعود الى هذه القوى الخارقة الملهمة التى جعلها تكتسب صفة مستمدة من المشخصات التى يراها .

ومثال ذلك ظهور العقيدة التوتمية Totemism لدى البدائين والتى تمثل فى نظر علماء الاجتماع ابسط مظاهر التنظيمات الدينية والتى لاحظها كثير من الانثروبولوجيين لدى سكان استراليا الاصليين عندما كانوا يقومون بدراساتهم الحقلية ، وتعتمد هذه العقيدة على تصورات البدائيين المرتكزة على أن افراد العشيرة التوتمية أو القبلية ينحدرون اصلا من الفصيلة التوتمية ، وهذا التوتم الذى تنتسب اليه الفصيلة قد يكون من اصل حيوانى أو نباتى تتخذه العشيرة رمزا لها ولقبا لجميع افرادها أو تعتقد أنها تنحدر عنه وتؤلف معه وحدة اجتماعية ، وتنزله منزلة « التقديس » فاذا كان « الذئب » مثلا طوطما لعشيرة من العشائر ، فانها تتخذه رمزا لها يميزها عما عداها من العشائر الاخرى بل ولقبا يحمله جميع افرادها اشارة لها يميزها ، كما تعتقد انها هى فصيلة الذئاب من طبيعة واحدة ، وتقوم جميع طقوسها وشعائرها على أساس من تقديس هذا الطوطم الذى اتخذته القبيلة رمزا لها ، ومعظم هذه الطواطم من أنواع الحيوان والنبات ، وان كان الحيوان منها أكثر من النباتى ، ويندر أن يكون الطوطم من الجماد أو من مظاهر الطبيعة ، والغالب أن يكون نوعا لافردا من هذا النوع ، فحين تتخذ العشيرة طوطمها

الذئب فليس ذلك لذئب معين وانما الى فصيلة الذئب ، ويذكر العالم الاثنولوجى كارل فون دى شتاين أن افراد احدى القبائل الهندية فى البرازيل الوسطى كانوا يؤكدون أنهم والحيوان الطوطمى الذى كانوا يقدسونه شيىء واحد ، فهم ماشية أو ببغاوات حمر . وتعتبر الطوطمية مرحلة اولى من مراحل الديانات البدائية ، بل ربما كانت مرحلة عامة مرت بها المجتمعات على اختلافها ، وقد عثر الباحثون لاول مرة على مظاهر كثيرة لمعالم هذه الديانة بين السكان الاصليين لامريكا الشمالية خاصة الهنود الحمر[1] .

وعليه فالمفكر البدائى يرتكز على الاعتقاد بوحدة الحياة الطبيعية والاجتماعية وطمس كل تلك الفروق التى تبدو فى نظرنا شواهد أو مسلمات يقينية بديهية ، وليس معنى هذا أن البدائى لايفرق بين الحياتين وانما يعيش فى إطار اسطورى دينى يدور فى فلك المجتمع الكلى مجتمع الحياة أو المجتمع البيولوجى الذى لايتمتع فيه الكائن البشرى بأية منزلة أو مكانة ارفع من مكانة أى كائن نباتا كان أم حيوانا فالناس والحيوانات والنباتات تقف فى خلده وأمام ناظريه على خط واحد ، كما انه لاانفصال فى فكره بين المقدس والمدنس فاى منهما يمكن أن يتحول الى الاخر وفقا للطقوس والممارسات التى يراها ويمارسها المجتمع .

المانا والفكر البدائى :

يرجع مصطلح مانا Mana الى لغات الجماعات الميلانيزية والبولينيزية بجزر المحيط الهندى ، وكان العلامة « اندروز » اول من أشار الى هذا المصطلح فى كلامه عن مجتمع « هاواى » قاصدا به التعبير عن القدرة أو القوة الخارقة للعادة ثم ادخل « لورنجتن » هذا المصطلح الى دائرة علم الاجتماع موضحا أن هذا المصطلح يستخدم لدى البدائيين للدلالة على قوة غير مشخصة تختلف عن أية قوة مادية وأن كانت تظهر فى شكل مادى ، وانها تؤثر بالنفع والضرر معا ، وأوضح أن

---

(١) راجع معجم العلوم الاجتماعية ، اعداد نخبة من الاساتذة المصريين والعرب المتخصصين ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٣٧٣ .

الطقوس المنتشرة فى « ماليزيا » تهدف الى تزويد افراد المجتمع بهذه القوة ، ومن هذا المنطلق اهتم علماء الانثروبولوجيا بدراسة فكرة المانا حيث تناولها بالتحليل كل من « هوبير » و « موس » وانتهيا الى أن للمانا طبيعة سحرية ودينية معا[1] . كما وضحا أن مركز الفرد فى المجتمع الماليزى يحدد بمدى حصوله على هذه القوة ، كما ذهب فريق من علماء الاجتماع الدينى إلى أن هذه الفكرة كانت مصاحبة لنشأة الديانة الانسانية الأولى ويرجع عالم الاجتماع الفرنسى « اميل دوركايم » العبادة الطوطمية الى ما زود به الطوطم من قوة المانا ، كما توسع علماء الانثروبولوجيا بعد فى الكشف عن المصطلحات المماثلة للمانا والمعروفة فى الجماعات البدائية والمتخلفة كفكرة « الاتمانا » و « البراهمانا » المنتشرة عند الهنود والتى تناظر قوة المانا ، كما يشير الانثروبولوجيون الى مصطلحات مماثلة « كالهاسينا » لدى سكان مدغشقر و « مانيتو » و « أكان » عند الهنود الحمر فى امريكا الشمالية كما يعتبر « وسترمارك » كلمة « البركة » المستخدمة فى المغرب ولدى بعض المجتمعات الاسلامية مناظرة لهذا المصطلح .

ومن نتائج الدراسات الانثروبولوجية التى قام بها « ريموند فيرث » فى ١٩٤٠م تقرير المفهوم الوظيفى للمانا فى الشعوب البدائية التى تستخدمها على اساس أن الفرد يحصل منها على درجة من التوفيق والنجاح تفوق التقدير المألوف بالنسبة للشخص العادى المتفوق . بمعنى انها تحقق لمن يحصل عليها فوزا يتعدى حدود التوقع بحيث تظهر الفرد بانه يملك من الامكانات الروحية والتاثيرية مايفوق به غيره ، او يحقق به فوزا لايستطيع سواه ان يحصل عليه .

وعلى أية حال فتلك صورة من التفكير البدائى الذى يخلط بين الواقع وغير الواقع ويبحث عن الايمان بقوى غير شخصية يحاول ان يفسر بها عالمه المادى الذى يعيش فيه .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠٩ .

الخصائص المميزة للتفكير الاجتماعى البدائى

تتلخص اهم هذه الخصائص فيما يلى[1] .

١ ــ كان هذا التفكير صدى وتعبيرا عن النظم الاجتماعية والعشائرية المختلفة قبل أن يكون تأملا للحياة الاجتماعية .

٢ ــ اتجه هذا التفكير منذ البداية الى الفولكلور الذى يعد نتاجا ومحصلة للمحاولة والخطأ من البدائى وذلك رغبة منه فى استغلال موارد الطبيعة وسد حاجاته المعيشية وتثبيت ما وصل اليه من تكنولوجيا .

٣ ــ امام الفكر الاجتماعى للبدائى كانت هناك تحديات تصادفه من ناحية الضعف والعجز والفناء أو الموت الذى لم يجد لها البدائى حلا سوى اللجوء الى القوى الغيبية والممارسات الطقوسية السحرية .

٤ ــ كانت النظرية الاجتماعية فى شكلها الأول لدى البدائى تتخذ شكل الشعائر والطقوس المقدسة وتهدف اساسا الى تحقيق وظائف عملية اكثر منها تأملات صورية أو تجريدية .

٥ ــ نما الجانب التأملى فى الفكر الاجتماعى البدائى فى ظل تصوره لوحدة الحياة واتصالها المستمر دون ادراك ما للحدود والابعاد والفواصل المكانية والزمانية والوظيفية .

٦ ــ اهتم الفكر الاجتماعى لدى البدائى بالواجبات الانسانية وتثبيت كيانها عن طريق اوامر ونواهى لها صفة القداسة بداية من الشكل المادى الى النمط العقلى النظرى .

٧ ــ ارتباط الفكر الاجتماعى البدائى بالمسحة الغيبية يرجع الى ان النظم

(١) احمد الخشاب : التفكير الاجتماعى : دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية دار المعارف القاهرة ٩٧٠ م ص ٤٩ ــ ص ٥٣ .

العشائرية المختلفة كانت تصور العالم على أنه مزود بقوة مادية روحية فيه وفى واحد على غرار ما كان يتجسد فى فكرة المانا التى تظهر فى كافة الاشياء بحظوظ متفاوتة ومن شأن هذه القوة زيادة الانتاج والعمل وابعاد الشر وايقاع الاذى مما نشأ عنه من عديد من الممارسات السحرية .

٨ ــ كان هذا الفكر البدائى يهدف اساسا الى اهداف عملية حتى من وراء الطقوس والممارسات السحرية المختلفة ، فالهدف الاساسى هو الوصول الى غايات عملية وكمثال لذلك عبادة مظاهر الطبيعة وانتشارها بوجه خاص بين القبائل الرعوية كعبادة القمر والنجوم لاعتماد هذه العشائر عليها فى تدبيرا امورها المتصلة بالرعى ، وكذلك عبادة آلهة الارض والخصوبة التى سادت بين الذين عملوا باقتصاديات الزراعة اعتقادا منهم انها تساهم مساهمة فعالة فى زيادة الثروة والنمو .

٩ ــ كان الفكر الاجتماعى البدائى ــ فى جوهره ــ محاولة لأن يعكس الخبرة الدنيوية المعايشة على النطاق الغيبى المقدس . الامر الذى دعا البدائى لان يجعل هناك تخصصا وظيفيا للالهة تبعا للانشطة التى كان يباشرها فهناك اله للحرب وثان للزراعة وثالث للخصب والنماء وآخر للفن وهكذا . وبهذا لم يكن هذا الفكر ذا طابع منظم أو موحد ولم يكن نابعا عن دراسة مقصودة لذاتها كما أنه لم يترجم عن التنظيمات الاجتماعية وانما كان يتستر وراءها . وعلى ايه حال فقد كان بداية للانطلاق الفكر المنطقى المنظم فيما بعد .

الفصل الثالث

العلوم الانسانية والاجتماعية فى اطار المعرفة البشرية

درج جمهور الفلاسفة الغربيين على أن يرجعوا تاريخ المعرفة البشرية المنهجية المتمثلة فى الفلسفة والتى تشتمل على سائر العلوم المختلفة طبيعية أم انسانية أم اجتماعية درجوا على أن يرجعوها الى العصر اليونانى القديم على أساس انها نشأت أول ما نشأت فى احضان الفلسفة اليونانية كابداع اصيل من هؤلاء . ولم يكن هناك تفرقة ما بين الفلسفة والعلوم فالفيلسوف هو الذى يبحث فى سائر المعارف البشرية سواء اتصلت بالطبيعة أم بما بعد الطبيعة « الميتافيزيقا » أم فى النفس أم شئون الاجتماع والحياة الى سائر مايتصل بالمعارف الانسانية جميعها .

ولقد رد أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد نشأة الفلسفة الى اليونان الذين اعتبرهم سادة العالم كله وانحدر بها الى طاليس فى النصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد ، واتفق مع ارسطو معظم المحدثين من مؤرخى الفلسفة وان اختلفوا فى تحديد أول من تفلسف . وكانت الفلسفة بمعناها العام منذ نشأت بهذا المعنى تتناول امرين العلم النظرى والعلم العلمى ، ويتناول العلم النظرى دراسة الطبيعيات والرياضيات والالهيات ، بينما يتناول العلم العلمى فى رأى ارسطو الاخلاق والسياسة والاقتصاد ، واذا اتفق جمهور المحدثين من الفلاسفة مع ارسطو فى رد نشأة الفلسفة الى اليونان فان النظرة المتأنية البعيدة عن التحيز تثبت ان الفلسفة اليونانية نفسها اتصلت بالشرق واخذت منه وتأثرت به ز فمثلا نجد ديودور الصقلى Diodor Decicle المؤرخ اليونانى الشهير والذى زار مصر فى منتصف القرن الأول قبل الميلاد يذكر ان عديدا من مشاهير الفلاسفة الاغريق عاشوا فى مصر واتصلوا بكهنتها واخذوا عنهم أمثال هوميروس

الشاعر اليونانى الشهير وليكورج Lucurgue المشرع الاسبرطى وسولون Solon

المشرع الأثينى وفيثاغورس الرياضى الشهير وديمقريطس وافلاطون وسواهم ، كما يرى الفيلسوف جوستاف لوبون Justave Lebon أن الفكر الفلسفى وإن بلغ قمته على يد الاغريق إلا أن بذوره الأولى ظهرت ونمت فى الشرق مهد الحضارات والمعارف البشرية ، ويتفق جمهور المؤرخين على أنه فى الوقت الذى كان فيه اليونان جهلة برابرة فى الماضى السحيق كانت هناك حضارات مزدهرة على ضفاف النيل وفى ربوع الشرق القديم . كما أن ول ديورانت Will Durant اشهر مؤرخى الحضارات بالولايات المتحدة وجورج سارتون مؤرخ العلم بها وبول ماسون أورسيل P. Masson Oursel وهو من أشهر اساتذة الفلسفة الشرقية بفرنسا يقررون أن الفلسفة نشأت فى أول عهدها على يد الشرق القديم بعامة وفى تراث المصريين القدماء بخاصة ، ويقرر المؤرخ الأمريكى الشهير جورج سارتون فى كتابه « تاريخ العلم » رأيه القائل « إن نور العلم انبثق من الشرق ، وما من شك فى أن معارفنا العلمية القديمة ــ نحن الغربيين ــ مهما يكن أمرها فانها ترتد أصلا الى الشرق ، وإذا كنا لانستطيع ان نقول الكثير بصورة محددة عن الاصول الصينية أو الهندية التى صدر منها علم الغرب ، فاننا على العكس نستطيع بيقين وتحدي دقيق أن ننحدر بأصوله إلى تراث ما بين النهرين ومصر ويؤكد « سارتون » أنه ليس هناك ما يسمى بالمعجزة اليونانية Greek Miracle يقصد ابتداع الفكر الفلسفى اليونانى على غير مثال سابق عليه ، وأنه ينبغى رد الفلسفة اليونانية إلى أسس من تراث الشرق ، ويقول انه ليس من حق الغربيين ان يستبعدوا الأم والأب من مجال نهضتهم الفكرية التى تنحدر إلى العبقرية اليونانية ، وليس الأب لهذا التراث اليونانى سوى التراث المصرى وليست الأم سوى ذخيرة بلاد ما بين النهرين ومع هذا فان الانصاف يستدعى القول بان الحضارة الغربية ترجع ــ فيما ترجع اليه من اصول ــ إلى الأصل اليونانى ، بل ان فلسفة الاغريق يمكن أن تعتبر أول مظهر من مظاهر الحضارة الغربية بصفة عامة وفكرها الفلسفى بخاصة .

وعلى أية حال فانه مما يميز الفكر اليونانى أنه كان فكرا نظريا يختلف عن فكر الشرق القديم الذى اتسم بالصبغة العملية الأخلاقية وقد اهتم الاغريق اهتماما كبيرا

بذاتية الفرد واحترام تفكيره وتقدير عقله ، ولهذا كان لهم السبق فى مبدأ البحث عن المعرفة للمعرفة ومحبة العلم كغاية فى ذاته[1] وقد امتد مجال المعرفة عند الاغريق ليشمل عالم الانسان وعالم ما وراء الطبيعة فى ظل العقلية اليونانية التى امتازت بحب الاستطلاع والبحث عن الحقيقة وانطلاق الخيال الابداعى الحر ، ولعل فى عبارة افلاطون دعنا نتتبع المناقشة الى حيث تقودنا أبلغ دليل على شجاعة اليونان العقلية .

لقد جعل اليونان من العقل حكما فى كل شىء ، وكانوا أول من نادى بأن الانسان كائن عاقل ، وقد عبر سقراط شيخ الفلاسفة عن هذا حين قرر أنه عندما يصل الانسان الى مرحلة الشعور بالذات يصبح واجبه الاول ان يعرف نفسه ، كما رأى أن طبيعة الإنسان العاقلة هى التى تتيح له تحديد غاياته فى الحياة كما يرسمها هو لنفسه .

ورغم ان المباحث التقليدية للفلسفة تشمل مجال المعرفة « الابستمولوجيا » هذا المجال الذى يعالج امكانية المعرفة وطبيعتها وحدودها كذلك تشمل بحث القيم الذى يتناول الحق الذى يدرسه علم المنطق حيث يحاول دراسة الروابط أو العلاقات المختلفة بين اجراء الفكر وطرق استنباط حقيقة من أخرى ، وكذلك علم الاخلاق الذى يحاول البحث فى قيمة الخير وشرح مفاهيم الواجب والسعادة والضمير وكذلك علم الجمال وتحديده لمعانى الانسجام والنظام والتناسق والرشاقة والابداع والتذوق والحكم الجمالى وماينبغى ان يكون عليه الشىء الجميل . ورغم ن الفلسفة تشمل مجال المعرفة والقيم الا أنها ظلت تبحث فى فروع اخرى حتى مطلع العصر الحديث وهى فروع من صميم العلوم الاجتماعية والانسانية منها :

١ ــ فلسفة القانون ، وتدرس الصلة بين القانون الطبيعى أى القانون الذى اودعه الله تعالى للكون والقانون الوضعى ، كما تدرس الاسس العامة للمسئولية والجزاء وتهتم بالمبادىء الانسانية للقوانين الوضعية والمفاهيم

(١) زكى محمد اسماعيل (بالاشتراك) الفلسفة . الجزء الثانى الطبعة الأولى دار النشر التربوى ، الخرطوم ١٩٧٤م .

الكلية التى يستخدمها رجال القانون كمفهوم العقل والنية والارادة والقصد والحرية والعدالة والتبعة والعقاب .

٢ ــ فلسفة السياسة وتلك تدرس التنظيم الاجتماعى وعلاقة الفرد بالدولة وسمات الحكومة المثلى وطرق قيامها واصل المجتمع ومبادىء تكوينه وطبيعة الحقوق الفردية ومقاييس السياسة ووظيفتها ، وإذا كانت فلسفة الاخلاق تعمل على تدبير سلوك الرفد فان فلسفة السياسة تدبر حكم المجتمع الذى ينتمى اليه الرفد .

٣ ــ فلسفة التاريخ :
ويهتم هذا النوع من الفلسفة بتحديد مسار التاريخ ووضع نظرية فلسفية عامة تفسر مجرى التاريخ كوحدة واحدة أى فى كل متصل ، ولا تعنى هذه الفلسفة مجرد سرد وتفسير الواقع ، وانما تهتم بوضع قوانين عامة تفسرها فى كليتها . ففى رأى فلاسفة التاريخ ان الانسانية تسير وفق قوانين ثابتة تتخطى الزمان والمكان ولاتسير وفق الاهواء أو المصادفات ، لهذا كانت مهمة فلسفة التاريخ الكشف عن هذه القوانين الثابتة والتى تسير تاريخ البشرية ككل ، واذا كان علم التاريخ يتخذ من حوادثه وتسلسل هذه الحوادث اساسا للدراسة فان فلسفة التاريخ تصطنع نهجا عقليا يعتمد على فرض وتأييدها بامثلة تتفق والواقع لتفسير حركة التاريخ .

وعلى أيه حال فإن الفلسفة ظلت حتى مطلع العصر الحديث ــ تشمل البحث فى العلوم الانسانية المختلفة وإن كانت تدرسها بمنهج تأملى تجريدى أى بمنهج لايعتمد على الواقع وإنما على التفكير النظرى شأنها فى ذلك شأن البحث فى مجال المعرفة والقيم كما سبق أن اشرنا .

مفهوم العلوم الانسانية والاجتماعية : ــ

فى الواقع أنه اذا كانت العلوم الطبيعية الحديثة تدرس المادة كموضوع اساسى لها دراسة موضوعية منهجية ، واذا كانت الرياضة تهتم بدراسة الكم بنوعية

المتصل كالهندسة أو المنفصل كالحساب والجبر فان موضوع العلوم الانسانية ينصب على دراسة الظواهر الانسانية المختلفة اجتماعيا كانت أم نفسية اقتصادية أم تاريخية ، اخلاقية أم دينية ، طبيعية أم تشريحية ، وبمعنى آخر فان العلوم الانسانية تدرس الانسان وتجعله محورا لهذه الدراسة سواء كان فردا له طبيعته الفسيولوجية كعلم التشريح وعلم وظائف الاعضاء وعلم الحياة .. الخ كما تدرس العلوم الاجتماعية علاقة الانسان بالمجتمع .

— وهنا تعتبر العلوم الاجتماعية فرعا من العلوم الانسانية ، والعلوم الاجتماعية هى التى تجعل الانسان من حيث سلوكه وثقافته وتاريخه محورا للدراسة ، فإذ انصب الدراسة على التجمعات الانسانية وما ينشأ عنها من علاقات وظواهر اجتماعية متشابكة ومعقدة كان هذا موضوعا لعلم الاجتماع Sociology واذا انصبت الدراسة على دراسة الانسان من حيث ثقافته وبناؤه الاجتماعى فى مكان وزمان معنيين وفى مجتمع محدود الكثافة بمنهج المعايشة الميدانية لهذا المجتمع وصولا الى النظرية أو التعميم الذى يفسر طبيعة وثقافة وبناء هذا المجتمع كان هذا موضوعا للانثروبولوجيا الاجتماعة Social Anthropology « علم الانسان الاجتماعى » واذا تناولت الدراسة من حيث ما مر به من أحداث بشرية عبر التطور الزمنى ومحاولة تحديد القوانين التى تسير هذه الاحداث فى ضوئها كان ذلك موضوعا لعلم التاريخ . اما القانون فيدرس الانسان من حيث المبادىء العامة التى تقرر حقوقه وواجباته سواء على المستوى الدولى أو القومى ، وارتباط تلك الحقوق والواجبات بمفاهيم العدالة والفعل والحق والمسئولية والجزاء ، أما علم الاقتصاد فهو العلم الذى يدرس الانسان من حيث حاجاته فى مجتمعه ، كما يدرس المشكلات التى تنشأ عن وجود حاجات إنسانية متعددة تقابلها موارد محددة لإشباع تلك الحاجات ولذا يسميه البعض « علم الندرة » وان كان هذا لاينطبق على المجتمعات البدائية التى لاتسير على نهج الاقتصاد التقليدى أو أقتصاد السوق . وانما تسير على نهج اقتصادى آخر تعالجه « الانثروبولوجيا الاقتصادية » وهو اقتصاد المقايضة أو اقتصاد الجمع والإلتقاط وهناك علوم انسانية تختص بدراسة السلوك الانسانى دراسة

مباشرة وتعمل على تقويم هذا السلوك وتدريب الانسان عليه كعلم النفس والتربيه والإخلاف ، وتلك هي العلوم السلوكية التى سنفصل القول فيها بعد .

وعلى أيه حال فان العلوم الانسانية بدأت تستقل عن الفلسفة موضوعا ومنهجا فى مطلع العصر الحديث ، واذا كان علم الاقتصاد من أوائل العلوم الاجتماعية التى استقلت عن الفلسفة ، فان علم الاجتماع كان من أواخر العلوم التى استقلت عن الفلسفة موضوعا ومنهجا ، واذا كان فريق من الاجتماعيين الغربيين يرون ان « أميل دوركايم » عالم الاجتماع الحديث هو منشىء علم الاجتماع فان النظرة المتأنية البعيدة عن التعصب ترى أن العلامة العربى المسلم ابن خلدون منشىء « علم العمران » اى الاجتماع الانسانى كما حدد ذلك فى مقدمته الشهيرة وذلك بعد أن ظل التفكير الفلسفى غالبا على الدراسات الاجتماعية فى العصور الوسطى وكان ابن خلدون أول من حاول تحرير الدراسات الاجتماعية من الطابع الفلسفى التجريدى الذى كان يشوبها وذلك لفهمه الاجتماع أو « علم العمران » فهما واقعيا من خلال ما هو كائن وعن طريق تصفية علم التاريخ مما كان يشوبه من خرافات واباطيل لايستسيغها الفهم السليم للامور ، وقد وصف علمه الجديد بقوله « وكأن هذا علم مستقل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران البشرى ، والاجتماع الانسانى ذو مسائل وهو بيان مايلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحده بعد اخرى ، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أم عقليا » .

ومن خلال هذا العرض يتضح ان العلوم الاجتماعية والسلوكية فرع من العلوم الانسانية التى تجعل الانسان محورا لدارستها سواء من حيث كونه فردا ذا طبيعة بيولوجية او فردا فى مجتمع له ثقافته وبناؤه الخاص به يتفاعل فيه وينفعل به متأثرا ومؤثرا له طبيعته الديناميكية ، بينما تختص العلوم الاجتماعية بدراسة الفرد من حيث طبيعته الأخيرة أى كونه فرادا فى مجتمع ، أما العلوم السلوكية فهى التى تدرس الانسان من حيث سلوكه وطبيعة هذا السلوك وكيفية تكوينه وتدريب الفرد على القيام به كعلم النفس والتربية والاخلاق كما سبق ان اشرنا .

منهج العلوم الاجتماعية

اختلف منهج البحث فى العلوم الاجتماعية قديما عنه حديثا نظرا لاختلاف النظرة لهذه العلوم من حيث موضوعها ومنهجها فى العهدين ، فقديما — كما اشرنا — نظر الفلاسفة الى العوم الاجتماعية والانسانية بعامة على أنها علوم معيارية تقديرية أى تدرس ما ينبغى ان يكون لا ما هو كائن ، وفى نفس الوقت تنظر للإنسان كقيمة من القيم العليا مما جعل هذه النظرة تندرج فى نطاق البحث الفلسفى حتى مطلع العصر الحديث حين بدأت العلوم الاجتماعية تنفصل عن المباحث الفلسفية موضوعا ومنهجا ، وقد اعتمد المنهج الحديث لهذه العلوم على النظرة العلمية المنهجية التى تستبعد الجانب التقديرى فى النظرة لهذه العلوم وتستبدلها بالجانب التقريرى، الذى يقرر ما هو كائن لا ما ينبغى أن يكون ، كما تستبعد النظرة الفلسفية الخفية الغامضة التى تكمن وراء الظواهر وتجنح الى دراسة الواقع وصولا إلى التعميمات أو القوانين العلمية ، وقد حاولت العلوم الاجتماعية — منذ نشأتها اصطناع المنهج التجريبى المستخدم فى العلوم الطبيعية والذى يعتمد اساسا على الملاحظة المنهجية الموجة تمهيدا لفرض الفروض العلمية التى يمتحن العالم صحتها بوسائل تجريبية حددها العلماء وذلك بغية الوصول الى تحقيق الفرض الذى يتحول الى النظرية أو القانون ، بيد أن العلوم الانسانية والاجتماعية لانها تجعل الانسان محورا لهذه الدراسة ولما كان الانسان يختلف فى جوهره عن المادة التى هى موضوع العلوم البيولوجية والطبيعية ، فان هناك عقبات اعترضت طريق المنهج التجريبى فى العلوم الاجتماعية قابلتها محاولات من العلماء الاجتماعيين لتذليل هذه العقبات والسير بالعلوم الاجتماعية فى اطار المنهج العلمى الذى يتفق وطبيعة هذه العلوم ، وكانت العقبات التى اعترضت مناهج هذه العلوم والرد عليها كما يلى :

العقبات التى اعترضت طريق المنهج التجريبى فى العلوم الاجتماعية :

اعترض جمهور من الفلاسفة والمفكرين لاسيما فى القرن التاسع عشر على إمكان تطبيق المنهج التجريبى فى محيط العلوم الاجتماعية والسلوكية على أساس أن

للإنسان « ذاتا حرة » تتصف بالتعليم والوعى والإرادة الأمر الذى يصعب معه إخضاعها لفكرة التجريب العلمى وأنه إذا كان الانسان من الممكن أن يفهم داخليا فمن الصعب أن نخضعه لتفسير خارجى ، اذ أن هذا التفسير لايصح إلا للظواهر الطبيعية وحدها لاللظواهر الاجتماعية وقد ساعد هؤلاء المفكرين عديدا من الادلة لتبرير اعتراضاتهم كما يلى : —

١ — إن طبيعة الموضوعات التى تعالجها كل من العلوم الطبيعية والانسانية تختلف تمام الاختلاف ومن ثم لزم ان تختلف المناهج التى تعالجها ، اى أنه اذا كانت قوانين العلوم الطبيعية دقيقة وعامة لاتتقيد بزمان أو مكان فان قوانين أو تعميمات العلوم الانسانية ليست كذلك لانها مقيدة بظروف الزمان والمكان مما يجعلها تخضع للاستثناء الذى لايعترف به القانون العلمى .

٢ — الارادة البشرية الحرة تتدخل فى تحريك مسار الظاهرة الاجتماعية وهذا لايحدث فى أيه ظاهرة طبيعية ، لان الانسان وحده هو الكائن الحى صاحب الارادة الحرة المختارة قال تعالى « وهديناه النجدين » وهذا بعكس الحيوانات فحتى ارقاها من فصيلة الشمبانزى لايملك من الارادة المختارة الا بمقدار ما يملى عليها ، وكان نتيجة لهذا امكان تكرار الظاهرة الطبيعية بعكس الظاهرة الاجتماعية التى يصعب فى محيطها التكرار .

٣ — إن التنبؤ العلمى فى مجال الظاهرة الطبيعية ميسور ولكنه ليس كذلك فى مجال الظاهرة الاجتماعية على وجه دقيق ، ففى العلوم الطبيعية يمكننا ان نتكهن بالنتائج والمعلومات متى ادركنا عللها ولكن ليس من السهل ذلك فى العلوم الانسانية التى تتحكم فيها ارادة الانسان وهى على أية حال ارادة محدودة تسيرها ارادة الله العليا .

٤ — من الصعوبة أن نخضع الانسان للتجريب العلمى كما هو الحال فى الظاهرة الطبيعية أو فى مجال دراسة الحيوانات إلى حد ما ، ولما كانت التجربة

والملاحظة ـــ فى نظر هؤلاء المعترضين سبيلا للوصول الى القانون العلمى ، فان مثل هذا القانون إن تيسر الوصول اليه فى ظواهر الطبيعية تعذر الوصول اليه فى العلوم الاجتماعية .

٥ ـــ بينما تعتمد العلوم الطبيعية على التقدير الكمى واستخدام اساليب الرياضة فى قوانينها العملية فان من الصعب اخضاع الظاهرة الانسانية للقياس الكمى اذ لايمكن اختراع « ترمومتر » لقياس حرارة العواطف أو لهيب الهجر أو درجة الصدق أو « بارومتر » لقياس ضغط الحب وهكذا ، فان تلك الأمور تخضع للفهم الكيفى لاللتفسير الكمى .

٦ ـــ اذا كان لايمكن تعميم القانون فى الدراسات الاجتماعية بعكس القوانين الطبيعية العامة ، فذلك لأن الإنسان نفسه يختلف طبقا للبيئة والتاريخ والثقافة ، فالشرقى يختلف عن الاوربى والانسان قديما يختلف عنه حديثا بعكس المادة فهى فى خصائصها ثابتة فى أى زمان أو مكان ، وهكذا ترتبط الظاهرة الاجتماعية الانسانية « بالمتى والأين » بعكس الظاهرة المادية فمطلقة من كليهما ، فمثلا حجم الغاز يتناسب مع ضغطه عكسيا فى كل زمان ومكان ، ولكن قانون العرض والطلب أو الجريمة فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى تتحكم فيهما عوامل اجتماعية متشابكة ومعقدة .

٧ ـــ ليس من السهل تحقيق قدر تام من الموضوعية Obijectivity فى العلوم الاجتماعية والموضوعية من أهم الصفات التى يجب على الباحث ان يتصف بها فى مجال البحث العلمى التجريبى ، ذلك لان الباحث فى مجال الدراسات الاجتماعية يصعب عليه أن يتخلص تماما من أهوائه وميوله وثقافته حين يدرس تاريخ بلده أو يقوم ثقافة وطنه وأنه إذ يبحث

فإنما يبحث فى إطار الثقافة الخاصة مما يجعل النتائج تتم وهى لاتحقق حيدة تامة بعكس العلوم الطبيعية يكون تجرد الباحث من الميل والهوى فيها ميسورا مما يجعل البحث العلمى موضوعيا لا ذاتيا .

رد العلماء الاجتماعيين :

يرد العلماء الاجتماعيون على هذه الاعتراضات بأن العلوم الاجتماعية قد خطت بالفعل خطوات واسعة فى سبيل موضوعية العلم تشبها بالعلوم الطبيعية ، ومع هذا فإن المنهج العلمى لم يتحقق فى العلوم الاجتماعية والسلوكية بدرجة واحدة ، فقد وصل علم النفس التجريبى مثلا الى درجة كبيرة من استخدام الآلات العلمية الدقيقة وأصبحت له معامل فى سائر الكليات التى تتخذه موضوعا أساسيا للدراسة ، وإن لم يكن لهذه المعامل نفس دقة وضبط معامل الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا فى ضبط ودقة وتكميم النتائج . أما علم الاجتماع فينزع إلى الموضوعية من زاوية أخرى إذ لايمكن استخدام التجريب العلمى بصدده ، وان أمكن الاعتماد على الوثائق الشخصية والإحصائية والإحصاء والملاحظة الدقيقة بديلا للتجريب . كما يرون أنه عن طريق الملاحظة العلمية ، أمكن السير بنجاح فى دراسات علم النفس بنجاح عن طريق دراسة سلوك الأطفال ومراقبة حركاتهم بدقة وتكرار الملاحظات ، كما استخدمت الملاحظة المنهجية الى حد بعيد فى كل من علم النفس الحيوانى وعلم نفس الشواذ .

وفى وعليه فقد . كان للملاحظة اثرها الكبير فى تصنيف الظواهر الاجتماعية ومراقبة تغيراتها لوضع الفروض العلمية فى مجال هذا العلم مما كان له اثر كبير فى تحقيق موضوعته ، وكذلك استخدام الاحصاء فى علم الاجتماع ، وطرق دراسة الحالة وتقديم الاستبيانات المختلفة عن طريق استمارات البحث المنهجية الى غير من الاساليب الموضوعية العلمية التى تستخدم فى دراسة علم الاجتماع وصولا الى القانون او التعميم العام والذى يتحقق له اقصى درجة ممكنة من الثبات العلمى .

وبالنسبة للتجربة واستحالة استخدامها فى العلوم الانسانية فقد رد علماء النفس التجريبيون على هذا الاعتراض بان قياس الظاهرة النفسية لايكون عن طريق مباشر وانما عن طريق واسطة مادية مشاهدة كعالم الطبيعة لايقيس الحرارة نفسها وانما يقيس طول عمود الزئبق وكذلك فى قياس الضغط وسائر الظواهر المادية

الطبيعية ويرى علماء النفس المحدثون انه كلما توصلنا الى آلات قياس دقيقة استطعنا ان نخضع الظاهرة النفسية للبحث التجريبى بصورة ادق .

وقد تنوعت وسائل القياس للظاهرة النفسية وتدرجت منذ منتصف القرن السابع عشر حتى الان ، وأصبحت تشمل الاختبارات النفسية بشتى انواعها كالاختبارات اللفظية والذكاء والقدرات المختلفة او بواسطة الاجهزة العلمية كجهاز قياس زمن الرجع (ويحدد الزمن بين حدوث الفعل ورد الفعل وقياس التعب والانفعال ... الخ) وعن طريق التجارب النفسية فى محيط التعلم والادراك والتذكر .

وفى مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية : فقد اصبح العلماء يستخدمون منهج المعايشة الميدانية بين افراد المجتمع موضوع الدراسة واستخدام الملاحظة العلمية المنهجية لتحقيق نتائج موضوعية فى تفسير وتحليل ثقافة وبناء النموذج المجتمعى موضع الدراسة ، وهكذا اصبح لكل من العلوم الاجتماعية وسائلة العلمية فى الدراسة بحيث تبعدد عن استخدام المنهج التجريدى للاقتراب من طبيعة المنهج العلمى التجريبى ما امكن ذلك .

الفصل الرابع

حول مفهوم الانثروبولوجيا

تعتبر الانثروبولوجيا من أحدث الدراسات فى العلوم الانسانية اذ لاتزال تجتاز القرن الاول او يزيد قليلا من عمرها الاكاديمى اذا وضعنا فى الاعتبار ان العالم « راوخ » Rauch كان أول من استخدم مصطلح انثروبولوجيا Anthropalogy عام ١٨٤١ بمفهوم يختلف عن مفاهيمه السابقة التى كانت تتضمن معنى فلسفيا يتصل بدراسة النفس ثم اقتصر على دراسة السلالات ، وقد حدد راوخ موضوع الانثروبولوجيا بانه « دراسة المؤثرات الخارجية التى يخضع لها العقل ، والتغييرات التى تتم بمقضاها » اما العالم الامريكى فرانز بواس Boas فيرى أن الانثروبولوجيا تدرس الانسان باعتباره كائنا اجتماعيا حيث يشمل موضوع دراستها جميع ظواهر الحياة الاجتماعية والانسانية دون تحديد زمانى أو مكانى ، ويعرفها العالمان الامريكيان لينتون R.Lainton وهيرسكوفتش Herskovit بانها « دراسة الانسان واعماله »[1] .

وقد استطاع العلامة الانجليزى هادون Haddon ان يرجع استخدام اصطلاح انثروبولوجى الى الحضارتين الاغريقية والرومانية اذ لاحظ أن الفيلسوف ارسطو استخدم هذا الاصطلاح ليشير الى الشخص الذى يتحدث عن نفسه[2] وفى عام ١٥٠١م ظهر هذا الاصطلاح كعنوان لكتاب هاندت Hundt يتحدث فيه عن الاثروبولوجيا كعلم يدرس خصائص جسم الانسان من ناحيته التشريحية وان ظهر هذا الاصطلاح لاول مرة فى اللغة الانجليزية فى عام ١٦٥٥م فى كتاب بعنوان

---

(1) Hultjicantz, A and Bagger, International Dictionary of regiomal europen Ethnlogy and Falkore, Vol I, Copeuhagen 1960

والاشارة الى ترجمة العربية بعنوان « قاموس مصطلحات الانثروبولوجيا والفولكور ترجمة محمد الجوهرى ، وحسين الشامى دار المعارف القاهرة ١٩٧٢ ص ٤٩ ــ ٥٠ .

(2) Haddan A. History of Anthropalogy, London (rev-ed 1927 p. 20-25

« الانثروبولوجيا التجريدية Anthropalogy Abstracted موضوعه الطبيعة البشرية من زاويتها النفسية والتشريحية[1] وظل هذا منتشرا حتى اصبح للانثروبولوجيا مفهومها فى القرن التاسع عشر — كما اشرنا .

والواقع ان كلمة « نيروبولوجيا » مشتقة من كلمتين يونانيتين هما : أنثروبوس Anthtopos بمعنى « الانسان » لوجوس Logos وتعنى الكلمة او الموضوع او الدراسة ، بهذا تصبح الاثروبولوجيا « دراسة الانسان » أو « علم الانسان » على اساس ان المنهج المستخدم فى الانثروبولوجيا هو المنهج العلمى ومن هذا المعنى الاشتقاق لاصطلاح « انثروبولوجيا » يتضح ان موضوع هذا العلم هو « الانسان » فالانسان هو المحور الاساسى والاطار المرجعى الذى يحدد هذا العلم بصرف النظر عن الزمان والمكان فهما لايقيدان موضوعه بمعنى أن الانثروبولوجيا تدرس الانسان واسلافه الاوائل واصوله منذ اقدم فترات التاريخ وما قبل التاريخ لا فى بقعة معينة من العالم وانما فى كل انحاء العالم وذلك من خلال حفرياته وأثاره المختلفة فيزيقية وغير فيزيقية ، ولهذا كان موضوع هذا العلم واسعا ومترامى الجوانب من حيث اهتمامه بالجنس البشرى ككل اى من حيث دراسة اجسام افراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم ومحتوى ثقافتهم وتطورها وكيفية انتشارها وكل منتجاتهم المادية والرمزية والفكرية والاجتماعية ، وان كانت الاثروبولوجيا فى بداية امرها اهتمت اهتماما خاصا بدراسة المجتمعات البدائية او بمعنى ادق « شبه البدائية مما دعا بعض الانثروبولوجيين أن يقرر أن دراسة هذه المجتمعات التى يقال عنها « بدائية » هى أهم ما يميز الانثروبولوجيا عن العلوم الانسانية الأخرى كعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ والجغرافيا البشرية وعلم النفس .. الخ ، واذا صح هذا الرأى فى غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فانه لم يعد رأيا مقبولا فى القرن العشرين حيث بدأت تنتشر الدراسات الانثروبولوجيا فى المجتمعات غير البدائية خاصة فى القرى ومجتمعات البدو الرحل والمجتمعات الحرفية والمهنية فى المجتمعات المتحضرة ، وتلك الدراسات التى تختص

---

(1) Winch, A. Kistory of Anthropalogy, London (rev-ed 1927 p. 20-25)

بتحديد معالم حضارات المجتمعات المتمدينة كالمجتمع الامريكى والروسى والصينى ودراسة عمليات الصراع أو الامتزاج بين الحضارات التى تتضائل سماتها أو تتغير معالمها أو تتلاشى كليه فى حالة الهجرة أو الحروب ... الخ .

وان ظل اهتمامه الانثروبولوجيا حتى الان بدراسة المجتمعات الصغيرة أو المحدودة الكثافة . بصرف النظر عن درجة تحضر هذه المجتمعات ـــ هو من اهم الملامح التى تميز الدراسات الانثروبولوجية فى القرن العشرين .

وعلى اية حال فانه يمكن القول بان الانثروبولوجيا ليست العلم الوحيد الذى يدرس الانسان فالعلوم الانسانية المختلفة تشترك معها فى دراسته كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم التشريح والجغرافيا البشرية والسياسية وعلم الاقتصاد وعلم الاديان ... الخ . ورغم هذا فان الانثروبولوجيا تنفرد بسمات منهجية فى دارسة الانسان تحدد ملامحها وتميزها بالتالى عن كل هذه العلوم ومن اهم هذه الخصائص مايلى :

(١) الانثروبولوجيا تدرس المجتمع ككل متكامل[1] ولهذا تستخدم المنهج الكلى Holistic Method كمنهج علمى فى دارستها ، فمثلا حين قمنا بدراسة النسق التربوى بقبيلة الشلك فى جنوب السودان دراسة حقلية انثروبولوجية ... إقتضى ذلك ان نقوم بدراسة سائر الانساق الاجتماعية بذلك البناء الاجتماعى كالنسق السياسى والعقائدى والعشائرى والاقتصادى .. الخ . وذلك لتشابك هذه الانساق وارتباطها ببعضها البعض فى بناء قبلى متماسك ، ومن خلال هذه الخاصة تختلف الانثروبولوجيا عن علم السياسة الذى يستقل بدراسة الانسان كعضو فى حكومة او مواطن فى دولة وعن علم الاقتصاد الذى يختص بدراسة الانسان منتجا أو مستهلكا أو موزعا فى مجتمع ما ، وعن علم الاجتماع الذى يدرس الانسان باعتباره محورا للنظم والظواهر الاجتماعية التى يدور حولها دراسة علم الاجتماع لاسيما فى المجتمعات غير البدائية ، كما تختلف الانثروبولوجيا عن علم النفس الذى

---

(1) Hoebel., E. Adamson. Amthropalogy. The Study of Man Mc Graw Hill. N.Y. 1966 p. 5
Hoebel, E.A. Ibid. p. 7.

يدرس الانسان من حيث سلوكه المكون لشخصيته كعضو فى مجتمع يؤثر فيه ويتأثر به ، وعن التاريخ الذى يدرس الانسان فى الزمان والجغرافيا التى تدرسه فى المكان ولاتقتصر الانثروبولوجيا على دراسة الانسان من حيث بعده الاجتماعى والثقافى فحسب وانما تتناول الانسان من حيث دراسة بعده الفيزيقى الذى يشمل خصائصه التشريحية وتطور تلك الخصائص على مر التاريخ الفيزيقى للانسان .

وليس معنى هذا أن الأنثروبولوجيا تنفصل بدراستها عن العلوم الانسانية الاخرى بل على العكس ترتبط بها ارتباطا عضويا وثيقا ، بل ان الأنثروبولوجى لايستطيع أن يصل الى نتائجه وتحليلاته بدون معرفة خاصة بتلك العلوم الانسانية ، صحيح انه ليس بلازم ولايمكن ان يكون الانثروبولوجى متخصصا فيها كلها ، وانما لابد له من الالمام بها والوقوف على احدث نتائجها وتطورها ، ولهذا تتفرع الانثروبولوجيا نفسها الى فروع متعددة من خلال صلتها بهذه العلوم كالانثروبولوجيا السياسية والانثروبولوجيا النفسية أو الثقافية والشخصية « والانثروبولوجيا التربوية » .. الخ ، كما تتفرع الانثروبولوجيا الفيزيقية هى الاخرى الى عدة فروع تتصل بتخصصها فى دراسة الانسان الفيزيقى « كالاركيولوجيا » وعلم القياس البشرى « الانثروبومترى » ... الخ وكل من هذه الفروع المتعددة تغذى الانثروبولوجيا العامة بالعناصر الاساسية التى تستمد منها تحليلاتها وتفسيراتها لوضع مفهومها الشامل والمتكامل عن الانسان .

(٢) تهتم الانثروبولوجيا باستخدامها للمنهج المقارن Compartive Method فى دراستها وهو المنهج الذى يركز على المقارنة بين المجتمعات المختلفة عند دراستها للوصول الى النتائج أو التعميمات التى توصل اليها هذه الدراسة ، ويرى « هويل » ان المنهج المقارن هو انسب المناهج التى تستخدم فى دراسة الانثروبولوجيا ، ولهذا يرفض ايه تعميمات ينتهى اليها الباحث من خلال دراسة مجتمع واحد او حتى مجتمعين او ثلاثة من طبيعة واحدة فى البناء او الثقافة ، ويرى ان المقارنة المنهجية الجادة لاتتم الا فى اطار نماذج متعددة من المجتمعات المختلفة فى ابنيتها وانساقها وثقافاتها حتى يكون التعميم قائما على مستوى عال من

التجريد[1] . وعلى الانثروبولوجى الفيزيقى ان تكون دراسته فى ضوء المنهج المقارن الذى يتناول اكبر عدد ممكن من النماذج البشرية قديمها وحديثها ليتأكد من الخصائص الفيزيقية العامة لانواع البشر ، القديم منها والحديث ، البدائى والمتحضر ، وذلك للوقوف على الخصائص الفريدة التى يتميز بها نموذج انسانى ما عن النماذج الاخرى من الناحية البيولوجية . ويرى العالم الانثروبولوجى البريطانى راد كليف بروان Radcliffe Brown انه بدون استخدم المنهج المقارن والتركيز عليه فى الدراسة العلمية المنظمة فان الانثروبولوجيا الاجتماعية تصبح مجرد دراسة وصفية تاريخية Historiography لاترقى الى مستوى الدراسات المنهجية العلمية ، وان كان ينظر الى استخدام المنهج المقارن فى الدراسات الانثروبولوجية بحذر وبحيث يكون المنهج بعيدا عن الاستنباط النظرى مرتكزاً على اساس الاستقراء الحقلى[1] .

(٣) من أهم خصائص الانثروبولوجيا الثقافية او الاجتماعية المعاصرة اعتمادها اساسا على البحث الحقلى Research او المعايشة الميدانية للنموذج المختار للدراسة بعد أن انتهى عهد « الانثروبولوجيا النظرية » أو انثروبولوجيا « الكراسى المريحة » Armchairs علوم الطبيعية والكيمياء والحيوان والنبات. وإذا كان للعالم فى هذه العلوم معمله التجريبى Experimental Laboratory فان معمل الباحث الانثروبولوجى هو مجتمع الدراسة الذى يختاره بدقة ليحدد من خلاله اطار بحثه فى ضوء الفروض النظرية التى يمتحن صحتها من خلال منهجه الحقلى .

ولا مجال للقول الان بان الدراسة الانثروبولوجية ونظرياتها عرضة للتغير تبعا لما يجد من اكتشافات اجتماعية وانسانية او لما ينقصها من دقة العلوم الطبيعية وذلك لان نظريات العلوم الطبيعية نفسها عرضة للتغير فى اطار التقدم العلمى الراهن بحيث يمكن القول بان قوانين هذه العلوم هى الاخرى ليست لها صفة الثبات والاستقرار فى عالمنا المتغير الذى حطم بابحاثه العلمية الفضائية والكونية عديدا من النظريات العلمية السابقة فى مجال المادة والكون ، واذا كانت الرياضة وقوانيها هى

(1) Radcliffe Brown. A. R. Method On Social Anthinpalogy, Chicago. 1958 p. 109.

المثل الاعلى للدقة العلمية فان هناك من العلماء اليوم من يطعن فى تلك القوانين ، ويؤكد ان افكارنا عن العدد والمكان الهندسى ليست افكارا قبلية « اى لاتخضع للتجربة » كما نادى الفيلسوف كانط Kant من قبل ، بل يرون انها افكار قبلية اى لاتخضع للحس التجريبى ولا تستعصى عليه ، ومن هنا فلا مجال للطعن فى نتائج العلوم الاجتماعية بصفة عامة والبحث الانثروبولوجى بصفة خاصة ، فقد كان الفريد هادون A. Haddon رئيس بعثه جامعة كامبردج لمياة ميلانيزنا فى نهاية القرن التاسع عشر وهو اول الانثروبولوجين الحقلين كان من علماء الحيوان ، وبدل ان يجرى هو واعضاء بعثته تجاربهم على الاحياء المائية فوجئوا باقوام من البشر تختلف عاداتهم وانماط سلوكهم وطبيعة ثقافتهم اختلافا تاما عما شهدوه من قبل ، الامر الذى استهواهم وصرفهم عن الهدف الاصلى الى دراسة هذه النماذج البشرية التى تختلف تماما من حيث بناؤها الاجتماعى وانماط ثقافتها عن العالم المتحضر مما جعله هو واعضاء بعثته يتحولون من علماء احياء مائية الى علماء فى الأحياء البشرية ، وقد وضع « هادون » بعد ذلك اصول الانثروبولوجيا الاجتماعية على اساس المنهج الحقلى الميدانى الذى يلزم الباحث بدراسة البناء الاجتماعى دراسة علمية موضوعية عن طريق الملاحظة الموجهة ، ويرى بعض علماء الاجتماع أنه باستخدام هذا المنهج الانثروبولوجى فى دراسات علم الاجتماع يمكن الوصول الى نتائج موضوعية سليمة لان عملية فحص الوقائع أو اثبات فرض ما للوصول الى قانون أو تعميم لايعد أمراً صعباً وانما تلحق الصعوبة فى الوصول الى نتائج صحيحة[1] ولن تصح النتائج الا بمعايشة المجتمع نفسه من خلال منهج علمى موضوعى ميدانى .

(٤) من أهم الخصائص التى تميز الانثروبولوجيا عن غيرها من العلوم الانسانية اختيارها لنوعية معينة من النماذج المجتمعية التى تدرسها ، وقد كان النموذج المختار للدراسة الانثروبولوجية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بل بداية القرن العشرين هو المجتمع الذى يوصف بأنه بدائى Primitive Society لأنه مجتمع صغير

(١) على احمد عيسى . تصور جديد للاتجاهات النظرية والعلمية لعلم الاجتماع فى الوطن العربى ، حلقة النهوض بعلم الاجتماع فى الوطنه العربى . الجزائر ١٩ — ٢٦ مارس ١٩٧٣ ص ٤٠٥ — ٤١٧ .

نسبيا ومحدود لكثافة تسهل دراسته دراسة كلية شاملة ، كما كان فى نظر الانثروبولوجين من الاوربيين والامريكيين يعد مرآة تعكس ثقافة وبناء مجتمع الانسان الاول ولم يكن اختياره لهذا فحسب وانما لاسباب ودوافع استعمارية وتبشيرية تتعلق بالسيطرة على هذه المستعمرات من ناحية وتحويلها الى مجتمعات مسيحية من ناحية أخرى ، كما كان للنزعة العنصرية أو فكرة التفوق العنصرى أثرها الكبير فى التركيز على دراسة هذه المجتمعات لمحاولة اثبات أنها مجتمعات تمثل الدرك الاسفل من البناء الحضارى بينما تمثل مجتمعاتهم هم أى مجتمعات الرجل الابيض قمة هذا البناء الحضارى فى العلم ، بيد أنه فى غضون القرن العشرين ومع بداية حصول هذه المجتمعات على استقلالها وانفتاحها على الحضارات والثقافات الاخرى ، وانكماش المد الاستعمارى وما صحبه من تضاؤل هذه المجتمعات التى قيل عنها انها بدائية بدأت الانثروبولوجيا تطرق فى دراستها مجتمعات أخرى ولكنها محدودة الكثافة كمجتمع القرية ومجتمع البدو ومجتمع المصنع والمجتمعات الحرفية والمهنية فى المدن الكبيرة ، أى أن الانثروبولوحيا فى القرن العشرين لم تعد تقتصر فى دراستها على المجتمعات المتخلفة حضاريا وانما تطرقت لدراسة المجتمعات المتخلفة وغير المتخلفة ولكنها استبقت أمرا هاما هو أن تكون هذه النماذج المجتمعية صغيرة الحجم محدودة الكثافة وذلك ليمكن دراستها دراسة كلية متكاملة بالمنهج الانثروبولوجى .

(٥) من أهم مايميز الانثروبولوجيا عن العلوم الانسانية الاخرى أنها تدرس الانسان من جانبيه الفيزيقى والاجتماعى الثقافى معا ، ومن أهم خصائص هذين الفرعين ما يلى :

أ ــ الانثروبولوجيا الطبيعية **Physcial Anthropolagy** وتدرس جسم الانسان سواء من حيث صفاته ومقاييسه أو من حيث أسلافه وأجداده الاوائل وكيفية انتشاره ، وأحيانا يطلق على هذه الشعبة اصطلاح « البيولوجيا البشرية » **Human Biolagy** وتدرس الانسان كاحد أعضاء المملكة الحيوانية اذ تهتم بتاريخ وتطور وطبيعة تركيبه الفيزيقى منذ أقدم العصور حتى الان كما تهتم بدراسة الخصائص

المميزة للسلالات البشرية وتفاوتها من حيث لون البشرة أو شكل الشعر أو طول القامة أو حجم الرأس أو لون العينين .. الخ محاولة أن تجد تفسيرا لهذه الاختلافات فى النهاية أى أنها تهتم بتتبع تاريخ الخصائص والصفات الجسمية والسلالات البشرية للانسان مما جعل علماء الانثروبولوجيا الفيزيقية يبحثون فى كل مكان عن أثار الانسان القديم ومقارنة أشكاله بالاشكال الحالية للانسان الحديث ، ورغم أن هذا العلم استطاع أن يجيب على عديد من الاسئلة التى كانت تراود الانسان منذ القدم وتحاول الكشف عن متى وأين ظهر أقدم مخلوق بشرى ووصف هذا المخلوق وتحديد مدى تشابهه أو تنافره مع غيره من مخلوقات الله تعالى ومدى تغير أو تطور صفاته الجسمية خلال الأزمنة المتعاقبة ، وينتمى هذا القسم فى تخصصه الاكاديمى الى العلوم الطبيعية حيث يهتم بدراسة علم التشريح Anatomy وعلم الحياة Biolagy وعلم العظام ومورفولوجيا الانسان أى البناء الانسانى Human Morpholagy وعلم الانثروبومترى « مقاييس جسم الانسان » Anthropometry وعلم جراحة الانسان[1] Human Sereology ولهذا يدرس فى كليات الطب والعلوم ، وان كان يدرس أحيانا فى كليات الاداب والعلوم الاجتماعية فى اقسام الانثروبولوجيا .

ولقد اثبتت دراسات الانثروبولوجيا الفيزيقية أن الانسان يمتاز ـــ على اختلاف السلاسلات ـــ بوحدة تركيبه الاساسى ، كما يمتاز باتساق هذا البناء البشرى ، وان كان يختلف فى بعض السمـــات الخارجيـــة لتـــلك السلالات كلـــون البشرة وطول القامة وشكل الوجه وحجم الانف .. الخ . وهو اختلاف يرجع الى طبيعة الايكولوجيا البشرية Human Ecalogy أى الى طبيعة البيئة التى يعيش فيها الانسان الذى ينتمى الى فصيلة واحدة هى فصيلة الانسان العاقل Homo-Sopiehe وهذا مصداق لقوله تعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

ومن الأهمية أن نشير الى أن نتائج الانثروبولوجيا الفيزيقية أثبتت أن الانسان

(1) Bahanan, à. Social Anthropology, Hall, Rinehart and Winston N.Y.1963, p. 3.

بوضعه الراهن أصبح يحتل موضعا فريدا فى المملكة الحيوانية اذ رغم إتفاقه مع معظم الحيوانات لاسيما الثديية منها فى عديد من السمات والخصائص العضوية الا أنه يتميز عنها ويتفوق عليها بعديد من الصفات التى ينفرد بها .

(١) التركيب المخى الفريد الذى يتميز بتعقيد معين ودقة بالغة فى تركيبه الفيزيقى .

(٢) الوقوف والمشى منتصبا وفى وضع معتدل ، وما يتبع ذلك من تركيب مميز لقدم الانسان يساعده على هذا الاعتدال .

(٣) الإنسان يمتاز بأن له حوضا أكثر اتساعا وأقل عمقا من الحيوانات .

(٤) السيقان الطويلة للجسم وطول الذراعيين معا .

(٥) السلسلة الفقرية المرنة التى تمكن الانسان من الاستقامة والانثناء معا وذلك بفضل طواعيتها ومرونتها .

(٦) التركيب الفريد الخاص باليدين وبه أمكن للانسان أن يستخدمها لتبادل الاشياء المختلفة وليس للمشى كما لدى الحيوانات .

(٧) ثنائية الابصار ، وبها يمكن للانسان أن يشاهد الرؤية المزدوجة يمينا ويسارا وأماما بما لا يتوفر لدى الحيوانات ولقد ترتب على هذا أن اصبح للإنسان وضعه الفريد فى المملكة الحيوانية فأصبح أينما وجد وكيفيا كانت حضارته يملك العديد من الأدوات والآلات التى يستخدمها فى حياته ، وله نظام بسيط أو معقد للحصول على غذائه وتنظيم اجتماعى معين ، وصدق الله تعالى اذ يقول « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » .

ولايقتصر شعبه الانثروبولوجيا الفيزيقية فى دراستها على تتبع تاريخ وتطور الخصائص والصفات الجسمية للانسان ، وانما تتعدى ذلك الى دراسة الطرق والوسائل التى أمكن للانسان أن يتكيف بها لبيئته[1] كما تهتم بدراسة مدى تأثير

(١) مفهوم البيئة هنا لايقتصر فحسب على البيئة الطبيعية وحدها كالارض والبحر والفضاء وانما يشمل ما تتضمنه من كائنات حية تشارك الانسان معيشته مستانسة أو متوحشة وهى سابقة على الوجود الانسانى نفسه كما تشمل المملكة فى سائر أشكالها وأنماطها .

البيئة على الانسان من الناحية الفيزيقية، ومن ناحية أخرى تدرس التفاعل بين القبائل والامم والسلالات المختلفة عن طريق الهجرة أو التزاو ج أو الحروب وأثر هذا التفاعل فى التكوين الفيزيقى للانسان ، كما تدرس مدى العلاقة بين تركيب الانسان الجسمى وبين عدد من العقبات أو المتغيرات الأخرى كالمزاج والذكاء والشخصية العامة .

وفيما يتعلق بانسان ماقبل التاريخ فان الانثروبولوجيا الفيزيقية تعالجه من خلال بقايا الانسان العظمية المتحجرة ، وهو مايسمى بعلم العظام كما أشرنا .

أما الاجناس المعاصرة فقد اتسع ميدان دراستها فأصبح يشمل سائر أعضاء الجسم الداخلية بطرق علمية حديثة كطرق التشريح المقارن ، كما أصبحت الانثروبولوجيا الفيزيقية تستخدم أسسا احصائيا متفقا عليها ، بعضها توزيعى وبعضها نسبى والبعض الاخر يستخدم طريقة المتوسطات ، كما تشمل الكشف عن أثر التشابه والاختلاف فى وظائف أعضاء الجسم بين الاجناس البشرية المختلفة حين تعرضها لبعض العمليات البيولوجية كتمثيل الغذاء أو سرعة النبض أو نسبة النمو .. الخ .

وبهذا لم تعد دراسة الانثروبولوجيا الفيزيقية قاصرة على مجرد تصنيف وتطور الصفات الفيزيقية للانسان عبر التاريخ البشرى كما كان شأنها فى القرن التاسع عشر وانما اتسع مجالها منذ ثلاثينات هذا القرن فأصبحت تهتم بدراسة عمليات النمو والوظائف العضوية من خلال منهج مقارن ، كما ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية دراسات تتعلق بدراسة فصائل الدم وعلم الاجنة مما جعلها تزداد عمقا فى الدراسات التى تتعلق بطبيعة الاختلافات التطورية بين الانسان عبر الزمان والمكان معا ومن أحدث البحوث التى شملتها الانثروبولوجيا الفيزيقية دراسة موضوعات مثل التكيف مع الحياة فى الارتفاعات العالية ، ومشكلة انعدام الوزن فى الفضاء الخارجى[1] .

---

(1) Bearls, R.I. and Koijer, K,Introduction to Anthropalogy

ومن الاهمية أن نشير الى أن البحث فى الانثروبولوجيا الفيزيقية بمناهج العلم التجريبية . ومن الامور الهامة التى يحاول العلماء أن يجيبوا بها على عديد من التساؤلات المطروحة عن بدء الخلق والاطوار التى مر بها الانسان فى حلقات متتالية وهى من الامور التى حثنا الله تعالى على الاهتمام بها والنظر فيها ، « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » وفى آية أخرى : « وقد خلقناكم اطوارا » .. وفى قوله تعالى « لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(ب) **الانثروبولوجيا الاجتماعية** Social Anthropalogy .

إذا كان الأنثروبولوجيون البريطانيون من انصار الاتجاه الوظيفى يسمون هذا الفرع بالانثروبولوجيا الاجتماعية ويحددون موضوعها بدراسة اللانساق والنظم الاجتماعية فى علاقاتها وترابطها مع بعضها البعض فى شبكة العلاقات الاجتماعية فان الانثروبولوجين الامريكين[1] أنصار الاتجاه الثقافى يسمون هذا الفرع بالانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropalogy والثقافة هنا فى أبسط معانيها هى طريقة أو اسلوب معيشة مجتمع ما ايا كانت درجته من الحضارة ، ولهذا يركزون على دراسة عادات وشعائر وتقاليد وأنماط سلوك هذه المجتمعات وسائر ما ينتجه الافراد من وسائل مادية وغير مادية وسنتناول فى كتابنا هذا تفصيلا لأسس ومناهج ونتائج هذا الفرع من الانثروبولوجيا وعلاقته بالعوم الانسانية والاجتماعية .

---

(1) Bearls, R.I. and Khijer, K, Introduction to Anthropalogy

(٢) والاشارة هنا الى الترجمة العربية بعنوان « مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ج١ للدكتور محمد الجوهرى والسيد الحسينى دار نهضة مصر — القاهرة — نيويورك » مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٧٦ ص ١٧ .

الانثروبولوجيا والاثنولوجيا والاثنوجرافيا

اختلطت المفاهيم الثلاثة مع بداية التفكير الانثروبولوجى المعاصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين كان المفهوم التقليدى للانثروبولوجيا يشير الى أية دراسة تتعلق بنشأة الاجناس البشرية وثقافتها ونظمها الاجتماعية وخصائصها الفيزيقية ، كما يشير المفهوم الى الاراء المستنبطة من مخلفات الكائنات البشرية التى عثر عليها فى الحفريات ، ومدى ارتباط ثقافتهم ونظمهم البنائية بالبيئة الطبيعية ، ومن هذا المنطلق كان مفهوم الانثروبولوجيا مفهوما فضفاضا يشتمل على الظواهر الفيزيقية والنفسية والاجتماعية للانسان متى وأين وجد مما دعا للخلط بين المصطلحات الدلالية لكل من الانثروبولوجيا والاثنولوجيا والاثنوجرافيا .

الاثنولوجيا Ethnology

تعنى الاثنولوجيا دراسة الشعوب والسلالات العرقية دراسة تاريخية مقارنة تتم عبر الزمان وتبحث فى الاصول الاولى للنوع الانسانى العاقل Homo-Sapiens وتطوره حتى العصر الحاضر ، ولهذا فهى تهتم بالمقارنة والتحليل من خلال نظرة تاريخية ، ويدخل فى إطار الاثنولوجيا دراسة اصول الحضارات والمناطق الثقافية ، وهجرة الثقافة وانتشارها من منطقة الى أخرى والسمات النوعية لكل من هذه الثقافات ، وقد اختلط مفهوم الاثنولوجيا بمفهوم الانثروبولوجيا الاجتماعية عند العلماء البريطانين والامريكيين والأوروبيين فى القرن التاسع عشر ، ويقول الانثروبولوجى البريطانى ايفانز بريتشارد «ان هذا ظل حتى ١٨٨٢ فى جامعة اكسفورد وحتى ١٩٠٠ فى جامعة كامبردج » وحتى ١٩٠٨ فى جامعة لندن .

أما الاثنوجرافيا Enthnagaraphy

فتعنى « وصف الشعوب » أو وصف الثقافات أو أنها الدراسة الوصفية للثقافات المختلفة التى تتعلق بالشعوب البدائية بصفة خاصة ، ويعرفها الانثروبولوجى الامريكى هوبل H obel بانها ذلك القسم من الأنثروبولوجيا الذى

يختص بالتسجيل الوصفى للثقافات أما وينيك Winich فيعرفها بأنها « دراسة الثقافات المختلفة دراسة وصفية غير تفسيرية فى المقام الاول » وقد نشأت الاثنوجرافيا من خلال كتابات الرحالة القدامى الذين كانوا يسجلون كل ما يشاهدون عن الجماعات المتخلفة حضاريا ، واليهم يرجع الفضل فى اتساع نطاق الدراسات الاثنوجرافيا وان لم تكن كتاباتهم تلك تقع فى اطار الدراسات المنهجية المنظمة ، وانما تتم من خلال تسجيل المشاهدات والملاحظات فى هذه المجتمعات بدافع من حب الاستطلاع والاحتفاظ بالمادة المدونة .

ومن هذا المنطلق فان الانصاف يدعو أى باحث منهجى ليقرر أن الدراسات الاثنوجرافيا بهذا المعنى لم تنشأ لدى المفكرين الاوربيين فى العصر الجديث كما يقرر معظم مؤرخى الانثروبولوجيا ــ أن لم يكن جميعهم ــ وانما نشأت الدراسات الاثنوجرافيا أو الانثروبولوجيا على مسرح الفكر المعاصر بحوالى خمسة قرون على أيدى الرحالة العرب قبل أن يعرف اصطلاح الاثنوجرافيا أو الانثروبولوجيا على مسرح الفكر المعاصر بحوالى خمسة قرون على أيدى الرحالة العرب أمثال « المسعودى » و « المقدسى » و « الادريسى » وابن حوقل وابن بطوطة[1] وابن جبير وغيرهم كما سنشير بالتفصيل فى الفصل التالى ، فلقد كان لهؤلاء الرحالة أثر كبير فى جمع المادة الاثنوجرافية من البلاد والممالك التى زاروها وكتبوا عنها ، ووصفوا عاداتها وتقاليدها وأنماط ثقافاتها سواء كانت تلك المجتمعات بدوية أم غير بدوية قروية أم مدنية ، بينما اقتصرت الدراسات الحديثة على المجتمعات البدائية وفى البيئة الطبيعية الى أقصى حد ممكن والتى يسودها حرف الرعى والصيد والزراعة البسيطة كما ترتبط بنظام معين للقرابة ويكاد ينعدم التخصص وتقسيم العمل فيها إلا فيما يتعلق بالسن والنوع كما يسودها الاعتقاد فى السحر والخرافات والامية وانعدام التراث المكتوب والتفكير العلمى المنهجى .

واذا كانت الدراسات الاثنوجرافية أو تلك التى لها الطابع الاثنوجرافى عند

---

(١) زكى محمد اسماعيل ، ملامح الدراسات الانثروبولوجية فى تراث المفكرين المسلمين ، مجلة العلوم الاجتماعية العدد الاول ــ الرياض ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م ص ٢٩١ ــ ٣٢٥ .

الرحالة المسلمين تسجل الانماط الثقافية لسائر المجتمعات التى جابوها بقصد جمع المادة العلمية وتسجيلها فان معظم الدراسات الأثنوجرافية فى العصر الحديث قام بها مبشرون مسيحيون ولهذا كانت أبعد مايكون من الدراسة العلمية الموضوعية ، كالدراسات الاثنوجرافية الخاصة بالجماعات الافريقية المتخلفة التى قام بها الاساقفة والمبشرون امثال الاسقف كالواى Calaway والاسقف شميدت ، وان تطورت الدراسات الاثنوجرافية بعد ذلك على يد المتخصصين فى الانثروبولوجيا أمثال جوند Jund فى دراسته عن الحياة فى قبائل جنوب افريقيا[1] ودراسة دال Dale عن دراسته فى بعض شعوب روديسيا الشمالية[2] وذلك فى بداية القرن التاسع عشر ، وقد تبع ذلك عديد من الدراسات الانثروبولوجيا الهامة فى إفريقيا كايفانز برتشارد E. Pritchard فى دراساته المركزة فى جنوب السودان ابتداء بالسحر والشعوذة فى قبائل الزاندى بجنوب السودان فى ١٩٢٧ ودراسة العلامة شابير Shapera عن قبائل البتشوانا Bechuana عن التالينزى Tallenis فى ساحا الذهب ونادل Nadel عن النوبا فى نيجيريا ، والتساؤل الذى كثيرا مايطرح فى هذا المجال هو لماذا كان التركيز على دراسة المجتمعات البدائية السمة التى تميزت بها الدراسات الاثنوجرافية لاسيما فى بداية عهدها فى العصر الجديث ؟ ، والاجابة على هذا التساؤل تحمل عديدا من العناصر أهمها أن هذه الجماعات مهددة بالزوال والانقراض من خريطة الشعوب المتخلفة أو التى يقال عنها انها بدائية نتيجة المد الحضارى الذى يزحف بسرعة على هذه المناطق وما يجاورها نتيجة استقلال معظم هذه الشعوب بعد فترة طويلة من الاستعمار ، كما أن فى دراستها الوقوف على أقرب الملامح للحياة الاولى التى مرت بها البشرية منذ أقدم العصور ويمكن مشاهدتها ودراستها فى الوقت الحاضر كما أنها مجتمعات تمتاز ببساطة تكوينها المورفولوجى وصغر مساحتها الامر الذى يسهل معه دراستها دراسة

---

(1) Jund. The Life of a South Africa Tribe 1912.

(2) Dale. The Lia-Spcsking People of Northern Rhodesia, 1920

(٣) راجع أحمد الخشاب ، دراسات أنثروبولوجية ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢٦ وما بعدها .

شاملة متكاملة ، كما أنها جماعات ليس لديها تراث مكتوب يمكن الاحتفاظ به أو الافادة منه مما يدعو لدراستها دراسة علمية اثنوجرافية .

وعلى ايه حال فان دراسة هذه الجماعات شبه البدائية دراسة اثنوجرافية ثم دراسة أنثروبولوجية تحليلة فيما بعد كان له اهمية علمية تنحصر فيما يلى[1] .

(١) كانت هذه الدراسات حجر الاساس فى نشأة علم الاجتماع الذى استفاد منها كثيرا فى فروضه وتحليلاته ومقارناته بالمجتمعات المتحضرة والقروية معا .

(٢) ساعدت الدراسات الاثنوجرافية المؤرخين لاسيما التطوريين منهم على تتبع التطور التاريخى للحضارة الانسانية اذ أن هذه الجماعات المتأخرة ظلت بمعزل عن التيارات الحضارية مما جعلها — بمعنى ما — تمثل الاشكال والنماذج الاولى للنظم الاجتماعية فى أبسط عناصرها وتكويناتها .

(٣) مهدت هذه الدراسات لكثير من العلماء الاجتماعيين فهم ومحاولة تفسير الظواهر والمشكلات الاجتماعية فى المجتمعات المتمدينة ، بل وساعدت فى الوصول الى قوانين وتعميمات اجتماعية توضح تطور هذه النظم من ناحية ، والتنبؤ بما قد تصادفه من عقبات من ناحية أخرى .

(٤) ساعدت هذه الدراسات فى حالات كثيرة على تطبيق المنهج العلمى فى البحث الاجتماعى باعتبارها حقلا خصبا للتجربة الاجتماعية مما جعلها تسهم فى احلال الدراسة الواقعية التجريبية موضع الدراسة الظنية الاستنباطية .

(٥) أسهمت هذه الدراسات فى تصحيح الكثير من الاوهام والافكار المتداولة والسطحية عن هذه الشعوب والتى امتلأت بها كتب القصص والاساطير لفترة طويلة من الزمن .

(٦) كان لهذه الدراسات تصحيح بعض الاراء الافتراضية التى تصورها المفكرون لاسيما بعد أن خضعت هذه الدراسات للتحليلات العلمية

الواقعية وبعد أن عايش الانثروبولوجيون هذه المجتمعات لفترات طويلة درسوا فيها أنماط سلوكهم وعناصر ثقافاتهم وطبيعة بنائهم الاجتماعى .

(٧) أصبحت هذه الدراسات — بعد أن خضعت للمنهج العلمى — منطلقا هاما بل وأساسيا للدراسات المقارنة فى الفكر الاجتماعى برمته ، فمثلا أصبحت دراسة النظم الاجتماعية المختلفة ، فى علم الاجتماع السياسى أو التربوى أو الحضرى أو الدينى لاتبدأ إلا من منطلق هذه الدراسات الاثنوجرافية للمجتمعات البدائية كأساس للمقارنة والتحليل معا .

الانثروبولوجيا الاجتماعية والاثنولوجيا .

كلا الفرعين يعتمد فى دراسته وتحليله وتعميماته على المعلومات الاثنوجرافية لمجتمع أو ظاهرة ما من ظواهره ولكن بينما تنهج الاثنولوجيا منهجا تاريخيا انتشاريا فى تحليلاتها عن طريق تتبع الظاهرة الى أصولها التاريخية الأولى وكيفية انتشارها فان الانثروبولوجى الاجتماعى لايهتم بهذا المنهج التاريخى وانما يهتم بدراسة الظاهرة دراسة وظيفية « هنا » وألان أى فى مكان وزمان معينين غير عابىء بالتسلسل التاريخى للظاهرة فهو تاريخ فرضى تخمينى لايعتمد به ، ويضرب — « ايفانز برتشارد » مثالا على ذلك بظاهرة عبادة أرواح الموتى ، أو عبادة الاسلاف[1] حيث يؤول الانثروبولوجى الاجتماعى تلك الظاهرة ويحللها فى ضوء النظم الاجتماعية الاخرى كنظام الاسرة وبناء العائلة ونظام القرابة الى غير ذلك من النظم التى تتصل بالظاهرة على اعتبار أنها من عناصر النسق الاجتماعى العام للجماعة التى تنتشر فيها تلك العبادة ، فى الوقت الذى يدرس الاثنولوجى هذه الظاهرة على اعتبار أنها جزء من الثقافة العامة ولهذا فهو يركز فى دراسته على الافعال والعادات والممارسات التى يباشرها معتنقو هذه الديانة تجاه الارواح التى يعبدونها أو يتقربون اليها عن طريق تقديم القرابين والطقوس وغير ذلك من أمور تعتمد على التحليل والتخمين ، كما

---

(١) « ايفانز ريتشارد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٦٠ .

يلجأ الاثنولوجى الى التفسير والتحليل والتبرير الاستنباطى والنفسى فى علاج هذه الممارسات .

واذا كان علماء الاثنولوجيا لاسيما الانتشاريون أو أصحاب المدرسة الانتشارية Diffusionsts يتتبعون أغلب عناصر الظاهرة الثقافية فى عديد من الجماعات ثم يحللون الظاهرة الى أبسط أشكالها ويستخلصون من ذلك موطنها الاصلىَ على اعتبار أنها توجد فى أبسط مظاهرها فى هذا الموطن ، ومن هنا يمكن اعادة بناء التاريخ الثقافى لتلك الظاهرة ، وقد كان هذا شأن معظم الاثنولوجيين الاوائل أمثال سيرجيمس فريزر ـــ James Frazer خاصة فى أشهر مؤلفاته « الغصن الذهبى » The Coldenbough وكذلك سيراد وارد تايلو Edward Tylor فى مؤلفه الشهير « الثقافة البدائية » Primitive Culture وتمتاز مؤلفات هذين العالمين بأنها أحتوت على وصف عادات وممارسات وطقوس اجتماعية مستمدة من مصادر متنوعة وفى بيئات وأزمنة وجماعات مختلفة بهدف اظهار مدى شيوعها ومقدار عموميتها واوجه التشابه والاختلاف فيما بينها فى مختلف العصور ، فمثلا عن عقيدة « الطوطمية[1] Totemism تسود فى كثير من أشكال المتجمعات الانسانية المتخلفة والمنعزلة حضاريا وتتركز فى اتخاذ القبيلة أو الجماعة رمزا لها تقدسه ، وتعتقد أنها منحدرة عنه ، وهذا الرمز قد يكون حيوانا أو نباتا أو جمادا أو ظاهرة طبيعية[1] . وقد اختلف علماء الاثنولوجيا فى تحديد الاصل الاول لهذه العقيدة عند البدائيين ، فاميل دوركايم E.Durkheim عالم الاجتماع الفرنسى يرى أن هذا الشكل من العقيدة البدائية ظهر أن ما ظهر لدى القبائل الاصلية الاسترالية ، بينما يرى العالم الامريكى فرانز بواس E. Boas أنه يمكن تلمس أصل هذا الشكل لدى الهنود الحمر سكان أمريكا الاصليين أما العالم الاسكتلندى « روبرتسون سمث R. Smith فيرى أن هذا الشكل من العقيدة ظهر أول ماظهر عند قبائل العرب فى الجاهلية .

(١) هذه الديانة تنتشر بين السكان الاصليين لاستراليا ولها رواسب لدى شعوب الساميين فى كل من شمال افريقيا ووسطها وفى مدغشقر وجزر الملايو وبولينزيا واندونيسيا والفليبين والهند الصينية والصين والهند . راجع كتاب الطوطمية اشهر الديانات البدائية « للدكتور على عبد الواحد والتى ـــ اصدرته دار المعارف فى سلسلة « اقرأ » العدد (١٩٤) .

ويرى عالم الاثنولوجيا فى دراسة الظواهر وتتبعها التاريخى واطارها الانتشارى دليلا على تحرك السلالات وهجرة الثقافة واتصال الشعوب ببعضها البعض على امتداد التاريخ الثقافى للانسان بينما يرى عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية فى هذه الظواهر مايوضح جانبا من الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب من ناحية ، كما يرى أن تلك العادة ذات ارتباط وثيق بالنباء الاجتماعى الكلى لهذا الشعب من ناحية أخرى ، ولايهمه إن كان هذا المجتمع قد استعارها من مجتمع آخر أو انحدرت اليه من الاسلاف إذ لايمكن التأكد من ذلك ، وحتى لو أمكن هذا فان العالم لايعرف بالتحديد متى وكيف ولماذا حدثت هذه الظاهرة .

واذا اتخذت بعض شعوب شرق افريقيا الشمس رمزا للاله فان عالم الاثنولوجيا يرى فى هذه العقيدة اثرا من أثار العبادة المصرية القديمة فى هذه الشعوب الافريقية بينما لايهتم الانثروبولوجى الاجتماعى بهذا الفرض لانه لايمكن اثباته وانما يركز اهتمامه على معرفة العلاقة بين هذه الرمزية الشمسية وبين النسق الكلى للعقيدة وللعبادة عند أفراد الشعب ، وقد اهتم الاثنولوجيون وركزوا على بعض الظواهر لدراستها فى المجتمعات البدائية كظاهرة وأد البنات Infacide والثأر والزواج الاغترابى Exogamy وهو الزواج من خارج وحدة القبيلة والعشيرة .

ومعنى هذا أن المنهج يختلف فى كل من الاثنولوجيا والانثروبولوجيا الاجتماعية الاول منهج التاريخ النفسى أو الانتشار التاريخى والاخر منهج وصفى اثنوجرافى يعتمد على الدراسة الحقلية من ناحية والتحليل البنائى الوظيفى للمعلومات الاثنوجرافية من ناحية أخرى .

الفصل الخامس

الانثروبولوجيا وصلتها بالعلوم الاخرى

لتتضح صلة الأنثروبولوجيا بالعلوم المختلفة انسانية أو طبيعية ينبغى أن نشير أولا الى أن العلوم على اختلاف انواعها ، تنقسم الى فرعين رئيسين هما :

أولا ـــ العلم النظرى

ثانيا ـــ الفن التطبيقى

والعلم ـــ ايا كان نوعه وهدفه ـــ يطلق على دراسة مجموعة معينة من الظواهر هى موضوع هذا العلم فى محاولة للكشف عن حقيقتها ونشأتها وتطورها وتحديد وظائفها وبيان العلاقات التى تربطها فى مجال العلم نفسه أو تربطها بغيرها من العلوم المختلفة وذلك بهدف الكشف عن القوانين التى تخضع لها ظواهر هذا العلم ، على أساس أن القانون أو النظرية أو التعميم غاية أساسية لأى علم من العلوم .

أما اصطلاح الفن أو البحث التطبيقى فيطلق على كل بحث موضوعه بيان الوسائل التى ينبغى أن يلجأ اليها الباحث للوصول الى غايات وأهداف علمية ، فمثلا اذا كان العلم يتصل بدراسة الظواهر والحقائق الاجتماعية كعلم الاجتماع فان فنه التطبيقى هو الاصلاح الاجتماعى ، واذا كان العلم يتصل بدراسة الظواهر الفيزيقية للانسان كعلم وظائف الاعضاء أو علم التشريح Anatomy فان غايته العلمية أو فنه التطبيقى هو العلاج أو الطب .

أى أنه بينما يهدف العلم الى غاية نظريه وصفية تقريرية فان افن يهدف الى غاية عملية تطبيقية فاذا كان علم الاجتماع أو علم التشريح يرميان الى وصف وتقرير طبيعة الظواهر الاجتماعية للاول والظواهر العضوية للاخير والوظائف التى تقوم بها كل من تلك الظواهر والعلاقات المختلفة بين ظواهر كل من العلمين فان هدف

الاصلاح الاجتماعى أو الطب هو هدف عملى وفن تطبيقى لكل من العلمين السابقيين وان كان هذا الفن يرتكز أساسا على القوانين العامة لكل من علم الاجتماع وعلم التشريح معا .

وفى ضوء هذا التحليل لاصطلاح العلم فان مفهوم « الانثروبولوجيا » يطلق على الدراسة العلمية النظرية الكاملة للانسان باعتباره كائنا يتألف من جسم وعقل ومادة وروح وبالتالى يتميز بخصائص فيزيقية فى تكوينه وتطوره ونموه ، وهذه الخصائص تميزه عن سائر الكائنات وتجعله فريدا فى خصائصه ، كما تدرس الانثروبولوجيا الانسان باعتباره كائنا اجتماعيا له وظائفه الحضارية وسماته الثقافية ومظاهره الفكرية التى تتفق فى الجوهر وتختلف فى المظهر باختلاف الزمان والمكان ودرجة التحضر ، ومعنى هذا أن الانثروبولوجيا « علم انسانى » كما يدل عليه اسمها ، وهذا يقودنا الى أن نقسم العلوم الانسانية نفسها الى قسمين هما :

(١) علوم فردية تدرس الانسان كفرد مثل علم النفس الفردى وعلم التشريح وعلم وظائف الاعضاء .

(٢) علوم اجتماعية تدرس الانسان كعضو فى مجتمع كعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى وعلم الاقتصاد وعلم السياسة وعلم الاديان

والانثروبولوجيا تشترك فى هاتين الطائفتين من حيث دراستها للانسان الفرد وتطوره التاريخى الفيزيقى وللانسان الاجتماعى فى إطار الانثروبولوجيا الاجتماعية .

وقد اشرنا فيما سبق الى أن الاثنوبولوجيا هى العلم الذى يختص بدراسة الانسان دراسة متكاملة أى من بعديه الفيزيقى والحضارى أو البيولوجى والاجتماعى معا ، وانها بهذا تتميز عن سائر العلوم المختلفة طبيعية وانسانية من حيث أن كلا من تلك العلوم تتناول دراسة الانسان من زاوية معينة قد لاتتعداها ، فبينما الانثروبولوجيا الاجتماعية دراسة للبناء الاجتماعى والوظيفى من ناحية وأصل الثقافات وانتشارها من ناحية أخرى ، يعنى كذلك بدراسة وتحليل العلاقة بين الجنس والبيئة من النواحى الجسمية والاقتصادية والاجتماعية وما يرتبط بها من أمور سياسية ودينية وتنشيئية أو تربوية وفنية ... الخ . من ناحية أخرى .

لكل هذه الاعتبارات كان اتصال الانثروبولوجيا بالمجالات التخصصية الاخرى للعلوم المختلفة اتصالا وثيقا سواء كانت تلك العلوم طبيعية أم انسانية ، ذلك لان الانثروبولوجيا توجه اهتماما كبيرا للوقوف على الانشطة العقلية والاثار النفسية والمزاجية والمستويات الصحية والجوانب الفنية للسلالات البشرية المختلفة ، كما أن دراسة تطور تلك السلالات يتصل اتصالا وثيقا بعلم الحفريات والقياس الانثروبولوجي ، وبالاضافة لكل هذا فان الانثروبولوجيا تهتم بدراسة وتحليل الأسس التي تقوم عليها العصبيات الداخلية والطائفية والمشاكل العنصرية وما يترتب عليها من مشكلات تتصل بالحقوق الانسانية والمعاملات الاجتماعية وذلك ابتغاء للوصول إلى حل أو تفسير علمي أو تحليلي وضعي أو تطبيق علمي .

ان الانثروبولوجيا تسعى لتحقيق أهدافها العلمية الموضوعية بالاستعانة بطائفة من المعارف المختلفة نظرا لاتساع ميدانها ، وهذه المعارف تنقسم الى قسمين طبقا لموضوع الانثروبولوجيا :

علوم طبيعية : كالطبيعة والكيمياء العضوية والكيمياء الحيوية وعلم الحياة وعلم الجيولوجيا وما الى ذلك .

علوم انسانية : وتلك كالتاريخ والجغرافيا البشرية والتربية وعلم الاجتماع والاقتصاد والقانون والسياسة وعلن النفس .

وتتصل الانثروبولوجيا الفيزيقية أو علم التاريخ الطبيعي للانسان بدراسة العلوم الطبيعية خاصة فروع علم الحيوان والدراسات القياسية للسلالات البشرية أو ما يعبر عنه باصطلاح « الانثروبومترى » Anthropometry كما تتصل بفرع دراسة السلالات المعاصرة أو « السوماتولوجى » Somatology وهو فرع يهتم بدراسة الخصائص المميزة للسلالات البشرية المعروفة والموجودة حاليا وتتصل كذلك بفرع الانثروبولوجيا السلالية و العرقية Racial Anthropology وهو فرع يهتم بتتبع المورثات Gens فى كل سلالة وتوضيح تسلسها وآثارها الاجتماعية وما يترتب على امتزاجها بمورثات سلالية متباينة واثر ذلك من الناحية الوظيفية سواء ما اتصل منها

بالجانب النفسى أو العقلى وله اتصال بعلم الوراثة ، وبالاضافة الى هذا فان الانثروبولوجيا الفيزيقية تتصل بالدراسات الكيميائية والحيوية وبالبحوث الطبية خاصة فى الحالات المرضية .

واذا كانت الانثروبولوجيا الفيزيقية تتصل بتلك العلوم اتصالا وثيقا فان الانثروبولوجيا الثقافية تتصل بدراسات اخرى أهمها .

(١) علم الاركيبولوجى « الاثار القديمة » :

ويهتم بدراسة الالات والادوات ووسائل الانتاج المختلفة فى المراحل التاريخية المتتابعة كما يهدف الى اعادة البناء فى عملية تصورية للحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ ، واذا كان علم التاريخ يسجل فترات المدنيات الكبرى فى الشرق الاوسط وأوربا والشرق فان الاركيولوجى يهتم بدراسة المراحل التاريخية الطويلة التى قضاها الانسان فى اكتشاف القراءة والكتابة ، معتمدا على البقايا التى خلفها الانسان وذلك من خلال استخدام مناهج دقيقة لفحص هذه البقايا وتسجيلها وتحديد مواقعها وتصنيفها ومقارنتها ببعضها البعض وذلك عن طريق كربون (١٤ أو طريقة الكربون المشع ويتعاون الاركيولوجيون والمؤرخون مع الاثنوجرافيين من خلال ما يتوصل اليه كل منهم من معلومات تلقى الضوء على العلوم الاخرى .

(٢) الفولكلور الشعبى :

وهو عبارة عن التراث القومى المتناقل عن طريق التواتر الشفهى ، ويهتم بجمع وتحليل ودراسة الدراما والموسيقا والقصص الشعبى ، ولا يقتصر الفولكلور على القاء الضوء على تاريخ ثقافة معينة وانما يتعدى ذلك الى تحليل علاقات التفاعل والتأثير المتبادل فى الثقافات المختلفة سواء كات ثقافات متقدمة أم متخلفة وتلك هى ما يطلق عليه الانثروبولوجيون عملية التثقيف من الخارج Accultuation (١) وهى التى تتم نتيجة التقاء ثقافتين مختلفتين .

(٣) علم اللغويات Linguistics

ويهتم هذا العلم بتحليل اللغات فى زمن معين لدراسة نظمها الصوتية وقواعدها ومفرداتها بالاعتماد على اللغة الكلامية وذلك عن طريق الاستماع اليها خاصة أن مثل هذه اللغات تكون صوتية أى لم تكتب بعد ويقوم عالم اللغة بكتابتها عن طريق استخدام رموز دولية فى المجتمعات البدائية ، كما يهتم هذا العلم كذلك بالجانب التاريخ المقارن الذى يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التى يمكن تتبع تاريخها عن طريق وثائق مكتوبة ، وان كانت المشكلة تصبح اكثر تعقيدا حين يواجه العالم بلغات قديمة لاتتوفر وثائق مكتوبة لها (٢) ويتحقق التعاون بين الانثروبولوجيا وعالم اللغويات عن طريق مايقدمه الاخير للانثوبولوجى من دراسة اللغة وتحليل عناصرها بالنسبة للمجتمع المدروس مما يساعد على دراسة الثقافة دراسة موضوعية .

ومن سياق هذا العرض السريع يتضح لنا بجلاء مدى التقاء العلوم الانسانية ببعضها البعض من حيث قيامها على دراسة الانسان كمحور لتلك على اختلاف ميادينها وتشعب موضوعاتها وغاياتها كما يعد الانسان فى تلك العلوم كلها الوسيلة والغاية معا الوسيلة التى يقوم عليها العلم فى عرضه للمسائل الانسانية وتناول جانب أو عدة جوانب أخرى . وصدق الله العظيم اذ يقول « خلق الانسان علمه البيان » ويقول تعالى « يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك » ان هذه الصورة المثلى التى خلق الله الانسان عليها هى التى تسعى العلوم الانسانية والفيزيقية جاهدة فى سبيل تحليلها وتفسيرها وفهمها وفى كل هذا تعميق لايمان الانسان بالخالق جل وعلا وادراك لسر عظمته وبديع تكوينه .

ولكن ماموقف الانثروبولوجيا بين الأتجاهين التخصصى والتكاملى فى دراسة هذا الانسان ؟

يرى بعض العلماء ضرورة أن يسود التخصص فى العلوم الى أقصى مداه بمعنى أن توجد فواصل بين أنواع المعرفة وأن يستقل كل منها بميدان خاص لايتعداه عن غيره على اعتبار أن سلوك الجنس البشرى تطور على شكل مجموعة من الانماط

المتمايزة فيما بينها وأنه لايصح طبقا لهذا المنطلق أن ندمج علوم تخصصية فى أخرى . فمثلا رجل السياسة عليه أن يدرس النظم السياسية للاجناس البشرية بعيدا عن أيه دراسة أخرى وعالم الاقتصاد عليه أن يقوم بدراسة أمور الشرائع والمعتقدات وما يتصل بها من طقوس ومواسم بعيدا عن الاستعانة أو الاستفادة من الدراسات الاخرى وهؤلاء يحللون اتجاهم هذا بأننا نعيش فى عصر يسوده التخصص وتقسيم العمل وهما يقضيان بضرورة أن يتخصص كل فى ميدان لايتعداه إلى غيره ، ولكن فى هذا الأتجاه عرقلة للدراسة الأنثروبولوجية وابعادها عن متابعة المشكلة التى يدرسها الانثروبولوجى وهى مشكلة من شأنها أن تمتد وتتفرع وتتشابك مع دراسات متنوعة فى مجالاتها التخصصية كما أن مثل هذا الاتجاه يؤدى الى سطحية البحث وضحالته بسبب ما يفرضه من حصار وهمى بين العناصر المتكاملة للمشكلة الانسانية ولهذا فان هذه النظرية التخصصية الانفرادية تعد ضربا من المعوقات العقيمة التى لا مبرر لقياسها ، ولاضرورة للابقاء عليها ، فالواقع أن هناك كثيرا من التداخل بين العلوم الاجتماعية بعضها مع البعض الاخر ، وان هناك عددا كبيرا منها يتأرجح بين الانسانيات والعلوم الطبيعية كالانثروبولوجيا والتى تدرس فى جامعات انجلترا من خلال منظورين احدهما يدرس بالكليات الادبية اذا كانت تتعلق بالانثروبولوجيا الاجتماعية والاخر يدرس بالكليات التجريبية .

واذا كان الباحث فى العلوم التجريبية كالطبيعة والكيمياء والطب والاحياء يستطيع أن يميز بين موضوعاتها بسهولة فان الباحث فى علوم الاجتماع أو الاقتصاد الاجتماعى أو الانثروبولوجيا الاجتماعية أو الجغرافيا البشرية أو الاثنولوجيا او التربية أو القانون أو علم النفس لايستطيع أن يفصل فصلا تاما بين موضوعات تلك العلوم ، فمثلا اذا كان موضوع علم الاجتماع العلاقات والظواهر الاجتماعية فانه يتصل بعديد من ظواهر العلوم الاخرى كالزواج .. وهو ظاهرة اجتماعية لايتم الا طبقا لنظم معينة كالمهر وما يقتضيه من عمليات تتعلق بتجهيز وتأثيث بيت الزوجية مما يدخل الزوجين فى علاقات اقتصادية معينة ثم أن هذا المهر نفسه

يحدده الدين ويجعله حقا ثابتا للزوجة يقول الله تعالى « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتاخذونه بهتانا وإثما مبينا» ثم ان الزواج نفسه لايتم الا عن طريق طقوس ومراسم دينية خاصة كعقد العقد والمهر والشهادة ونية الابدية فى الزواج حسبما تحدد الشريعة الاسلامية الغراء .

واذا كانت الانثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بدراسة البناء الاجتماعى والوظيفى فى مكان وزمان معينين فان هذا البناء لايكون الا من خلال شبكة مترابطة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة فيما بينها ، وهذه العلاقات نفسها قد تكون إقتصادية أو سياسية أو دينية أو أسرية أو قرابية الامر الذى يفرض على الانثروبولوجى أن يكون ملما بدراسة هذه العلوم.صحيح أنه ليس من الضرورة أن يكون متخصصا فى كل منهما ولكن عليه الرجوع الى احدث ما وصلت اليه من أبحاث حتى تتسم دراساته بالعمق والشمول الاكاديمى والذى يعد من أهم مقومات الدراسة الانثروبولوجية .

ولهذا فان الدراسة المتكاملة فى ميدان « علم الانسان » تتناول الموضوع من زواياه المتعددة بما ينطوى عليه من دراسات بيولوجية وراثية وتشريحية وتاريخية ولغوية ونفسية واقتصادية وسياسية ودينية وفلسفية وفنية وخلقية خاصة اذا كان الباحث يدرس الاصول الاثنولوجية والثقافية والتى يعبر عنها « بالجوانب الخلفية للثقافة الكلية The Back drops of the Total Culture لجماعة من الجماعات . ذلك أن الباحث بصدد بحثه عن تلك الاصول الثقافية يتعين عليه أن يستعين بالمعلومات المتواترة والاخبار الشائعة والحكم والامثال السائرة الى جانب عنايته بتحليل الوثائق والمستندات التاريخية النادرة التى يقدمها علم الحفريات وعلم الأثار القديمة .

وعلى ايه حال فان علم الانثروبولوجيا ـــ كما اسلفنا القول ـــ يميزه عن الدراسات الانسانية الاخرى استخدامه لمنهج المقارنة . هذا المنهج الذى يعد ركيزه هامة لدراسة علم الانسان بصفة عامة ، واذا كان المؤرخ لبلد معين أو عصر محدد وعالم الاجتماع يقصر نشاطه على حضارة ما يجعلها منطلقة فى تفسير وتحليل نظمها الاجتماعية فان الانثروبولوجى يجعل من جميع أجناس البشر مادة أساسية

لدراسته ، ويبدو منهج المقارنة واضحا حين يدرس الأنثروبولوجي الفيزيقى شعر الزنوج من حيث لونه وطبيعته وشكله وتجاعيده وطوله وخصائصه بصفة عامة فانه يقارنه بشعر الصينين والبيض وغيرهم من الاجناس البشرية فى محاولة لتصنيف تلك الاجناس من حيث طبيعة الشعر ومقوماته . كما أن الانثروبولوجى الاجتماعى يستخدم منهج المقارنة حين يحلل المعتقدات والاعمال السحرية والطقوس والمراسم المختلفة فى عديد من المجتمعات التى يدرسها ليصل الى تعميم يحدد من خلاله كيفية معالجة الشعوب لمشاكلها المختلفة عن طريق النظم التى يدرسها .

على أن منهج المقارنة لم يعد الان قصرا على الانثروبولوجيا وانما تعداها الى علم النفس وبعض فروع الطب وعلم الاجتماع ، فعلماء النفس يدرسون سيكلوجية الطفل فى المجتمعات المختلفة دراسة مقارنة ، وعلماء الامراض العقلية يهتموم بدراسة الامراض التى تصيب مختلف الشعوب ويحاولون الوصول الى الاسباب المتعددة التى تكمن وراء تلك الامراض ، ولهذا فان كلا من علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الامراض العقلية تعد من العلوم التى يلجأ اليها الانثروبولوجى لاختيار نظرية أو توضيح مشكلة أو ليجد سؤالا أو فرضا جديدا يحتاج الى تحقيقه علميا .

ومن الاهمية أن نشير الى أن لكل من علم النفس وعلم الانسان موقفا خاصا من العلوم الحيوية والانسانية معا ذلك أن كلا من علم النفس وعلم الانسان يعدان همزة الوصل أو المعبر بين العلوم التجريبية كالكيمياء والطبيعة وعلم الاحياء وبين علوم السلوك الانسانى كعلوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وبمعنى توضيحى يمكن القول بأنه اذا كان كل من علم الفسيولوجيا والطب يدرسان الانسان من حيث هو كائن حى ويدرسه كل من علم اجتماع والاقتصاد والسياسة من حيث كونه كائنا حيا بشريا له سلوكه الانسانى الخاص به فان كلا من الاخصائى النفسى والانثروبولوجى يجمعان بين الدراستين السابقتين من حيث بحثهما فى سلوك الانسان البشرى من ناحية .

بيد أن هناك فرقا بين عالم النفس وعالم الانسان فى موضوع الدراسة فبينما يقصر عالم النفس دراسته على الفرد فان الانثروبولوجى يركز اهتمامه على الجماعة

المختارة واذا ركز على فرد ما فيها فانما من خلال دوره البارز فى تلك الجماعة ، وإذا ركز عالم النفس فى دراسته على السلوك الفردى وأثره فى تكوين الشخصية ككل ومدى تأثر الشخصية بالبيئة الخارجية نفسية كانت أو ايكولوجية أو اجتماعية فان الانثروبولوجى ينظر باهتمام الى تقدم الفنون الالية والتكنولوجيا وأثرها فى الحضارة وذلك فى اطار دراسته للثقافة وتطورها وخصائصها .

وأما فى مجال العلاقة بين الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع فانهما يلتقيان فى مسائل عديدة منها أن كليهما يدرس الظاهرة الاجتماعية دراسة تكاملية أى من حيث الحاضر والماضى معا لاسيما اذا كان الاعتماد على التاريخ الحقيقى لاالظنى ، وكلاهما يهدف الى الوصول الى نظرية ، أو قانون عام يفسر طبيعة الظاهرة الاجتماعية تفسيرا يعتمد على الواقع المدروس ، كما يعتمد كل منهما على الدراسة الموضوعية محاولا أن يبتعد عن النظريات والاطر الفلسفية أو الافكار « اليوتوبية » التى اتسم بها الفكر الاجتماعى قديما وفى العصر الوسيط حتى أتيح للعلامة العربى المسلم عبد الرحمن بن خلدون أن ينادى بانشاء علم العمران أو الاجتماع الانسانى أى علم الاجتماع ، كما كانت له مساهماته الرائدة فى الدراسات الاثنوجرافية والاثنولوجية والتى قدمها من خلال رحلاته العديدة للبلدان العربية التى خبر ثقافتها وتحدث عنها حديث العالم الخبير .

لقد كان من أهم السمات التى تميز الانثولوجيا عن علم الاجتماع فى غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن الانثروبولوجيا تركز فى دراستها على المجتمعات البدائية بمنهج الدراسة الحقلية المركزة التى تعتمد على معايشة المجتمع ودراسة بنائية ثقافية متكاملة ، بينما يركز علم الاجتماع على دارسه للمجتمعات المدنية الصغيرة كمجتمع المصنع والمجتمع المهنى والحرفى ، والمجتمعات المستحدثة سواء المهجرة أو المنشأة أو غيرها ، ومع كل هذا فلا زال للدراسات الأنثروبولوجية ما يميزها من حيث تناولها للمجتمعات الصغيرة المحدودة ، وهذا أمر طبيعى يستدعيه المنهج الانثروبولوجى نفسه فى سمته الحقلية حيث لايعتمد على منهج دراسة الحالة أو

الاستفتاء أو الاعتماد أساسا على المنهج الاحصائى ... الخ كما هو الحال فى الدراسات السسيولوجية المعاصرة .

ورغم هذا فان التعاون بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا تعاون وثيق ، فعلماء الاجتماع يستفدن من نتائج الدراسات الانثروبولوجية فى مجال العرض والمناقشة والمقارنة والتحليل والتفسير لظاهرة اجتماعية ما ، وذلك لتعميق مفهومها السوسيولوجى ، كما يستفيد الانثروبولوجيون من نتائج الدراسات السيوسيولوجية أيا كان نوعها ، أو ميدانها وذلك فى مجال المقارنة والعرض والتحليل ، وقد اصبحت بعض المجتمعات كالمجتمعات الريفية ميدانا لكل من الدراسات الانثروبولوجيا والسيوسيولوجية معا ، وان اختلف منهج الدراسة فى كلتا الدراستين . وبهذا يصعب الفصل أو اقامة الحواجز الكثيفة بين دراسات الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، لدرجة أن أطلق راد كليف براون زعيم المدرسة الوظيفية الانجليزية على الانثروبولوجيا اصطلاح « علم الاجتماع المقارن » لاسيما وان تلك المدرسة بالذات اعتمدت اعتمادا كبيرا على المدرسة الاجتماعية الفرنسية بعامة وأفكار اميل دوركايم بصفة خاصة كما سنعرض ذلك فيما بعد : —

وفى مجال الصلة بين التاريخ والانثروبولوجيا :

فان كلا منهما يشترك مع الاخر فى أكثر من موقع سواء كان ذلك من حيث المنهج والهدف معا ، ذلك أن بعض المدارس الانثروبولوجية تنادى باستخدام المنهج التاريخى أساسا للتحليل والتفسير والوصول الى الحقائق العلمية خاصة عندما يحاولون الارتداد أو الرجوع الى الشكل الاول للحياة الاجتماعية ، ومن هؤلاء انصار المدرسة التطورية Evolutionism أمثال لويس مورجان Lewis Morgan (١٨١٨ — ١٨٨٢) والذى وضح رأيه فى التطور البشرى فى كتابه « التاريخ القديم » Ancient History اذ رأى أن « تاريخ الجنس البشرى واحد فى أساسه وخبرته وتقدمه » .

وبهذا اخضع سائر المجتمعات الانسانية لقانون واحد فى تطورها وفق مراحل

معينة وهذا هو مايطلق عليه علماء الاجتماع « فلسفة التاريخ » أى محاولة تصور قانون عام واحد يحكم التطور البشرى فى مراحلة المختلفة ، وقدحدد « مورجان » مراحل هذا التطور فى قانون كما يلى : —

(١) المرحلة الدنيا : lower Statuas of Savagery

وهى مرحلة الجنس الانسانى حيث لم يكن الانسان أكثر تقدما من الحيوان الا قليلا فموطنه الغابات المدارية أو شبه المدارية ومسكنه الاشجار خشية الحيوانات المفترسة وغذاؤه الجذور والفواكه ولغته أصوات مختلفة يتفاهم بها ، ويعد « مورجان هذه المرحلة مرحلة إنتقالية بين الانسان والحيوان .

(٢) المرحلة الوحشية الوسطى :

وفيها يتقدم الانسان قليلا عن المرحلة السابقة حيث يهتدى لانواع اخرى من الاطعمة كالاسماك .

(٣) المرحلة الوحشية العليا : Upper Atatue of Savagery

وفى تلك المرحلة اخترع الانسان القوس وبه استطاع الحصول على غذائه الاساسى . وبدأ يتقدم طفيفا فيما يتعلق بالفنون ويزاول بعض أشكال التنظيم الاجتماعى والدينى معا .

(٤) المرحلة البربة الدنيا (أى الهمجية)

وتبدأ تلك المرحلة فى رأيه بمعرفة بعض الصناعات الفخارية واستخدامها فى أمور شتى من حياته .

(٥) المرحلة البربرية الوسطى :

وفى هذه المرحلة انتشر استئناس الحيوان والزراعة وبدأ الانسان يقوم برى الارض ويبنى مساكنه من جذوع وفروع الاشجار .

(٦) المرحلة البربرية العليا :

وتبدأ تلك المرحلة بمعرفة الانسان صهر الحديد واستخدامه .

ويرى « مورجان » أن الانسان حين اجتاز هذه المراحل الست بدأ يدخل مرحلة المدنية والتى تتميز باختراع الكتابة الصوتية وماأدت اليه من مدنية أو ريفية .

وبعد « مورجان » من العلماء الذين لم يقتصروا على معلوماتهم النظرية التى كانوا يستوعبوها من قراءاتهم الكثيرة فى القرن التاسع عشر وانما كان من العلماء ذوى الاتصال الوثيق بكثير من الشعوب المختلفة لاسيما قبائل الهنود الحمر « قبائل الايركوا » حيث قام بعدد من الرحلات فى تلك القبائل بغية الدراسة الحقلية وكان لهذه الدراسات أثرها الكبير فى دراسته للمجتمع البشرى وتفسير التغيرات التى تطرأ على النظام وهى تفسيرات تعتمد على مايسمى « بالتاريخ الظنى » أو على « الانتشار الثقافى » واتصال المجتمعات ببعضها البعض وأحيانا ما تعتمد على التفسيرات السيكلوجية « والنفسية » وبهذا استطاع أن يدرك أن المجتمع وحدة واحدة وأن يدرك العلاقات المتبادلة بين النظم المختلفة فى المجتمع الواحد . وقد ظهر اعتماده على التاريخ الظنى بوضوح حين حاول أن يوضح تطور العلاقات الزوجية تاريخيا حيث يرى أن الانسان مر بأولى مراحله فى الاباحة الجنسية وهى زواج الجماعة بحيث يكون لكل فرد فيها زوجا لاية امرأة بها ثم مرحلة تعدد الزواج بالنسبة للمرأة الواحدة أو تعدد الزوجات بالنسبة للرجل الواحد حتى وصلت الانسانية فى آخر الامر الى مرحلة الزواج الاحادى ، وعلى أية حال فان نظرية « مورجان » التطورية التاريخية تعتمد فى جوهرها على أن هناك علاقة بين اتساع وزيادة موارد الرزق وبين التقدم الثقافى وأن الحياة الآلية أو التكنولوجية هى العامل المتحكم أو المسيطر على شكل الحياة الاجتماعية فى التطور الاجتماعى[1] وقد سبق العلامة العربى المسلم عبد الرحمن بن خلدون « مورجان » فى نظريته التطورية تلك

(١) لايخفى أن نظرية « مورجان » هذه هى مجرد فرض لايعتمد على حقيقة تاريخية ولا على أثر موثوق به فهى مجرد تاريخ ظنى أو تخمينى وهذا شأن جميع النظريات الاخرى التى من هذا النوع .

بقرون عديدة حين أدرك أن المجتمع له أعمار كما للاشخاص وأنه يسير من مرحلة الطفولة الى الصبا والشباب حتى يصل الى مرحلة الشيخوخة والفناء حيث يستعيد الكرة فى نموه وتطوره .

ويرى فى ازدهار الحضارة وزيادة الترف دليلا على قرب فناء المجتمع وتدهوره وبهذا نرى أن من أعلام المسلمين من أدرك طبيعة المجتمعات وتطورها وأن المجتمع البشرى لايسير فى تطوره تلقائيا وانما وفقا لنظرية عامة تحكمه .

هذا ، ولا ترجع الصلة بين التاريخ والانثروبولوجيا الى المبدأ التطورى الذى تنادى به بعض مدارس الانثروبولوجيا فحسب وانما تتعدى ذلك الى كل من الدراسة المقارنة والدراسة التكاملية المحيطة الشاملة والتى تعتمد على مجموعة تحصيلات من الدراسات الوصفية الأنثروبولوجية لايتم أسباب التعرف على أبعادها الا عن طريق الدراسة الوصفية التاريخية ، لهذا يرى العالم فرانزبواس F.Boas أن المهمة الاساسية للانثروبولوجيا الحضارية أو الاجتماعية هى اعادة تكوين المادة العلمية التى يجب ان يتوفر عليها الباحث أطول فترة من حياته ليتتبع تطور الظاهرة الحضارية ذلك لان الدراسة المتصلة للعادات والتنشئة والقيم والشعائر والتحقيق العلمى للتوزيع الجغرافى كل هذا يمهد للباحث فى علم الانسان سبيل التعرف على الأسباب والعوامل التاريخية التى أسهمت فى نشأة الظاهرة الحضارية وتكوينها مما يجعل « فرانزبواس » من رواد المدرسة التاريخية . واليه يرجع الفضل فى ادخال مفهوم المنطقة الحضارية Cultural Area فى الدراسات الانثروبولوجية ولكن من الاهمية أن نشير الى أن كل ما يمكن الوصول اليه فى هذا الصدد لايعد أن يكون مجرد احتمالات أو ترقعات فى الزمن التاريخى .

وتتصل الانثروبولوجيا بالطب الاجتماعى :

على أساس أن الطب الاجتماعى هو العلم الذى يبحث فى علاقة الصحة العامة للافراد بالمستوى الاجتماعى لهم ومدى الاثر المتبادل بينهما من ناحية ومدى تأثر الصحة العامة بالمستوى التكنولوجى والقيم والعادات والاعراف كمؤشرات

هامة فى الحياة الصحية من ناحية أخرى (١) ويعتبر الطب الاجتماعى ميدانيا حديثاً ويتصل اتصالا وثيقاً بالانثروبولوجيا من حيث دراستها للمجتمعات البدائية التى تركز عليها واتجاهها الحالى لدراسة مجتمعات أكثر تقدما وتعقدا واهتمام الدراسات التكاملية بمعالجة مشكلات محددة ، كل هذا يستلزم البحث عن العلاقة بين المستويات الثقافية والتكنولوجية والصحية العامة للمجتمع المدروس أى العلاقة بين دراسات علم الانسان والطب العلاجى والذى يضع فى اعتباره أمرين أساسيين يحكمان دراسته هما :

(١) الاطار الاجتماعى والثقافى لمجتمع ما ليس الا انعكاسا صادقا لكيفية معيشة أفراده ونوعية طعامهم ومعتقداتهم الشعبية وقيمهم ومستواهم التكنولوجى والحضارى الذى وصلوا اليه .

(٢) الصحة العامة نشاط اجتماعى وثقافى تؤدى الى قيام الافراد بأدوارهم الاجتماعية فى سلم البناء الاجتماعى ، ولهذا لايمكن انكارها أو انكار مدى أثرها على المحتوى الثقافى والاجتماعى لمجتمع ما لهذا كان لزاما على الانثروبولوجيا والعلماء الاجتماعيين بصفة عامة العمل على اعادة تخطيط منظم لبرامج الصحة العامة من خلال دراسة شاملة لمصادر الثروة القائمة بالفعل والاحوال الصحية للافراد ومستوى التعليم وأنماط العائلة ودرجة كثافتها وتحديد الاهداف التى يرجى اتخاذها فى وقت ما وقد نشأ عن هذا مايسمى بالمعادلة الثقافية The Cultural equation للطب والصحة العامة والمرض والعلاج وتعتمد هذه المعادلة على أساس الارتباط القائم بين الثقافة والمستوى الصحى لمجتمع ما . فبعض الجماعات لاسيما البدائية منها والمتخلفة تعتقد فى عبادة الارواح الخفية من حيث انها تنفع وتضر ما جعل تصورات الرجل البدائى تتم من خلال عادات ومعتقدات وطقوس وشعائر ذات مسحة سحرية وترتبط بها حالات تنشأ عن الارواح الشريرة أساسا وتؤدى الى ضرر الانسان ، ومن هذه الحالات التى تنشأ عن تلك الارواح الضعف العقلى والجنون والصرع والهوس ، وتلك كلها أمراض يلجأون للتداوى منها عن طريق الضرب المبرح أو الكى بالنار أو حمل التمائم أو المجهود الجسمى العنيف اعتقادا منهم بأن

مثل تلك الطرق القاسية العنيفة لاتتحملها هذه الارواح الخبيثة فتهرب منها ويشفى المريض أو أنهم يتصورون أن بتلك التمائم قوة خفية تحارب قوى البشر ، ولهذا فان حمل مثل تلك التعاويذ يبعث الطمأنينة الى النفوس ، ويهدىء من ثائره العنف التى تثيرها الارواح الخبيثة . وهذا يفسر توسل بعض البدائيين للتمائم ولآلات الطب التى يستخدمونها كى تشفى مرضاهم كما هو الحال عند زنوج أفريقيا ، ويعد شفاء المرض عند الأقوام المتأخرة فرعا من السحر لهذا كان تركيزهم على الارواح والروحانيات واستخدام التمائم والرقى وتقديم القرابين ، ولهذا فان أقوام الفيجى Figi يتصورون قوة الدواء وفعاليته فيما به من قوة سحرية ممثلة فى الرغاوى والفقاقيع ، بل ان بعض هؤلاء الاقوام يتوهمون أن القوة الكامنة فى الدواء تنبع من رائحته الكريهة أو من مذاقه المر ، وفى قبيلة الشلك بجنوب السودان يتخذون من روث البقرة بالذات وهى حيوان مقدس عندهم يتخذون منه دواء وأحيانا يدهنون به شعورهم للزينة ، كما أن البدائيين بجنوب السودان يدهنون أجسامهم بالزيت للزينة ولتكون أجسامهم ملساء تماما تمكنهم من الهرب بالليل عندما يسطون على بعض الاكواخ الاخرى لاجتذاب فريسة كما يستخدم بعض البدائيين دهن الخفافيش والوطاويط لعلاج الروماتيزم ويعتقدون أن اللون الاحمر يذهب المرض ويشفى الجسم فيلقون المريض بأقمشة حمراء اعتقادا بأن هذا اللون يساعد على طرد الارواح الخبيثة من المريض ويجلب له القوة والحياة .

ومن دراستنا الميدانية لقبيلة الشلك بمحافظة أعالى النيل بجنوب السودان اتضح أن الامراض المتوطنة بهذه القبيلة ترجع جلها ان لم يكن كلها الى أسباب ايكولوجية وأهم هذه الامراض مايلى :

(١) الحمى السوداء :

وهى مرض تختص به هذه المنطقة دون سواها وترجع الاصابة بها الى ذبابة خاصة تنتشر فى تلك المنطقة وتسمى « الذبابة الرملية » Sand Fly .

(٢) الحمى الرجعية .

(٣) الملاريا .

(٤) T.P السل الرئوى .

(٥) أمراض نقص التغذية .

(٦) الامراض العقلية .

وتنشأ تلك الامراض عن تناول مايسمى « بالمريسة » والعرقى « وهى أنواع من المأكولات الكحولية .

(٧) البلهارسيا وهى من الامراض غير المنتشرة .

ويندر بينهم الاصابة بالسكر « البول السكرى » أو أمراض القلب ، ويرجع الاطباء هذا الى البعد عن الحضارة من ناحية والتحدى العقلى والنفسى الذى ينتشر عادة فى المجتمعات المتحضرة من ناحية أخرى ، كما لوحظ أن الاصابة بالملاريا واسعة الانتشار فى هذه المنطقة ، وقد أثبتت البحوث الاكلينيكية أن الملاريا فى تلك المنطقة تغزو أجهزة الجسم حتى أنها تسبب أمراضا معوية كما تغزو المخ والجهاز العصبى ولذا تعتبر من أهم الاسباب التى تؤدى الى الامراض العقلية كما أن جهلهم بالمبادىء الصحية يسبب انتشار السل T:P وهو من الامراض التى تؤثر على الجهاز العصبى وتسبب فى كثير من الاحيان شللا نصفيا لعدد كثير من المرضى ، وتعتبر هذه المنطقة من أولى المناطق فى العالم التى ينتشر فيها هذا المرض بهذه الصورة[١]

ومن هذا يتضح ان هناك علاقة بين الاطراف الثقافية والصحية العامة كما أن هناك تأثيرا متبادلا بين البناء الاجتماعى والبناء القيمى وبيم الكيان الصحى فى مجتمع ما ، ومن الجدول التالى يتضح أثر العوامل الاجتماعية على الحالة الصحية فى المجتمع[١] .

(١) هذه المعلومات الطبية حصل عليها الباحث من مستشفيات المنطقة نفسها وتقارير الاطباء بها .

(٢) أحمد الخشاب — دراسات أنثروبولوجية — مرجع سابق ص ١٧٨ .

العوامل الاجتماعية	اسم المرض	العوامل الاجتماعية	اسم المرض
شرب اللبن غير المعقم	حمى ملطية	السكن فى الاماكن الخربة	سل
شرب الماء من أماكن ملوثة	دوسنتاريا والتهاب الكبد	عبادة البقر	نقص فى التغذية « أنيميا »
زيادة الدجالين	سرطان	الاستحمام فى مياة الترع	بلهارسيا
الغنى والتخمة	مرض السكر وتصلب الشرايين	المعيشة فى الاماكن الحارة	ملاريا
فقدان التوازن فى العناصر الغذائية	كساح	المعيشة فى القطبين الشمالى والجنوبى	عدم نمو بعض الميكروبات
الحفاء	الانكستوما وبعض الطفيليات الاخرى	العمل فى الحقل الذرى والاشعاعى	أمراض الاشعاع والعقم

وبهذا يمكن القول بأن هناك علاقة بين الثقافة ومستوى الصحة فى المجتمع ولما كانت الانماط الثقافية تتعدد بداخل المجتمع الواحد لاسيما اذا كان من المجتمعات النامية حيث توجد القرية والمدنية والمجتمع التقليدى فان لكل نمط ثقافى درجة معينة فى تأثيره على بعض القيم والاتجاهات والمعتقدات وتلك ذات تأثير معين على الصحة العامة كما يتضح من الجدول السابق الامر الذى يدعو الى ضرورة مراعاه أى برنامج صحى لتطوير هذه الانماط بما يتفق وطبيعة البناء الاجتماعى Social Structure وبالتالى الثقافة التقليدية Traditional Culture كما أنه ينبغى استغلال هذه الخصائص والسمات والانماط استغلالا سليما عند وضع أو تحديد البرامج وتخطيطها وذلك لان هذه النماذج والاطر الثقافية تشكل عادات وقيم الافراد منذ نشأتهم وعلى القائمين ببرامج الاصلاح فى هذه المجتمعات ملاحظة طبيعة الحياة فى المجتمع المدروس ومدى إنخفاض. أو ارتفاع المستوى الاقتصادى والوعى الصحى بها ، وبهذا فان البرنامج الصحى يدعو دائما الى مسح ثقافى وتصميم لتخطيط متواصل ، كما يتطلب بالتالى توعية الافراد للارتفاع بمستوى صنعتهم .

وعلى أية حال فان الأمر يتطلب فى هذا الصدد تدريب العناصر البشرية القادرة على رسم وتخطيط البرامج الصحية السليمة والقائمة على أسس علمية موضوعية ، وبهذا تعتمد الرعاية الصحية على أساس الاقناع والارشاد بكافة الوسائل الاعلامية السمعية والبصرية وذلك للقضاء على المعتقدات الخاطئة وما ينشأ عنها من وسائل طبية تضر بالكيان الصحى وقد تؤدى الى الهلاك نتيجة الجهل بكل وسائل الوقاية والرعاية الصحية .

تطور الدراسات الانثروبولوجية المتصلة بالرعاية الصحية :

تطورت الدراسات الانثروبولوجية الخاصة بمعالجة مشكلة الرعاية الصحية ومرت بأطوار متعددة . ففى القرن السادس عشر عالج بعض العلماء البريطانيين البحارة المصابيين بسوء التغذية بعصير الليمون ، كما أن العالم الايطالى فرانكاستوره Francostoro فطن فى منتصف القرن العشرين الى النظرة الى عدوى المرض من

حيث أساسها الاجتماعى لا من حيث أنها عملية فسيولوجية بحتة وكان ذلك حين عالج عدوى أمراض الطاعون وحمى التيفود على أساس أنها انتشرت عن طريق اختلاط المرضى بالاصحاء اختلاطا مباشرا وقرر حينئذ أن أمراض الطاعون والتيفود والتيفوس انما تنتشر بطريق السريان الاجتماعى والانتقال من خلال التجمعات والمشاركات المعيشية .

وكان هذا بداية اهتمام الشعوب والدول على اختلاف مستوياتها حاليا بالاثر الاجتماعى لمرض والقيام بالاجراءات الصحية والوقائية المتعددة عند ظهور أعراض مرض وبائى كالكوليرا ، ويظهر هذا بصورة واضحة فى تطعيم المسافرين من قطر الى اخر بالمصل الواقى للامراض المتوطنة فى هذا البلد أو ذاك كالحمى والصفراء والكوليرا والجدرى وغير ذلك من الامراض ومن أشهر الاطباء الذين أخذوا بالاتجاه الطبى الاجتماعى رين ساند Rein Sand فى بلجيكا وأرثر نيو شولهم Newdsholm فى انجلترا وجاك بارسوت Jaques Parisot فى فرنسا ، وقد تضمنت جهود هؤلاء دراسات ميدانية ومسحية للامراض وعلاقتها بالظروف الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمعات موضع الدراسة ، وقد اتسع نطاق تلك الدراسات فى امريكا اذ وجه عديد من علماء الاجتماع الانثروبولوجيين الامريكين مزيدا من العناية بالمشكلات الخاصة بالرعاية الطبية ، وقد قام برنهارد ستيرن Berhhard Stern عالم الاجتماع الأمريكى بدراسة فى بعض الاقاليم عن مدى ما تتعرض له الوسائل العلاجية الحديثة من مقاومة الاساليب التقليدية لدى فئات المتخلفة كما كان للدراسة المونوجرافية فى مجال الانثروبولوجيا الطبية والتى قام بها روبرت ليند Rubert Lend عن مدينة ميدلتاون Middletown ضمنه مسحا للمهن العلاجية والرعاية الطبية فى المدينة وأثره فى تطور الدراسات الطبية الاجتماعية كان له اثر فى هذا المجال . وقد ظهرت بحوث طبية اجتماعية فى هذا المجال قام بها بعض مشاهير الاطباء العرب كالمرحوم الدكتور أنور المفتى الطبيب الباطنى المصرى الشهير وما قام به من بحوث فى هذا المجال فى احدى القرى بشمال الدلتا بمصر وقد سميت القرية باسمه .

وفى سنة ١٩٥١ قدم جورج فوستر G.Foster تقريرا عن الاثر الفعال

للدراسات الانثروبولوجية عن كفاية العمال فى ميدان الخدمة الصحية ضمنه النقاط التالية : ـــ

(١) ينبغى أن يكون القائمون على الأشراف على البرامج الصحية من الذين زودوا بدراسات أنثروبولوجية تمكنهم من تفهم الانماط الثقافية السائدة فى البيئات الاجتماعية التى يباشرون فيها مهام وظائفهم سواء تعلقت جهودهم وبرامجهم تلك بالتخطيط أو التنفيذ .

(٢) تدريب المشرفين على تنفيذ البرامج الصحية على كيفية الافادة من الدراسات والنظريات الانثروبولوجية وعليهم أن يثروا بخبراتهم وملاحظاتهم ودراستهم الميدانية هذا المجال من الرعاية الصحية حتى يكون النفع متبادلا بين الاطار النظرى والتطبيق العملى .

(٣) تشجيع الدراسين والباحثين فى هذا المجال على التزويد بالمفاهيم الانثروبولوجية ونتائج دراساتها النظرية والتطبيقية ذات الصلة المباشرة بمسألة الرعاية الصحية .

(٤) الاستعانة بالمستشارين المتخصصين فى الانثروبولوجيا الاجتماعية والحضارية من شأنه تقديم الفائدة والتوجيه لمختلف الكوادر والمستويات الأدارية والفنية التى يعهد اليها بالتخطيط لبرامج الخدمات الصحية .

الفصل السادس

التربية والسلوك

اولا ـــ مفهوم التربية :

التربية تعنى من الناحية اللغوية « النمو او التنمية والزيادة مصحوبة بالتطوير والتحسين » وهى مشتقة من الفعل « ربايربو » بمعنى نما وزاد ، ويتطابق هذا المعنى مع القول الله عز وجل « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله » كما تشتق من قول العرب » رب الانسان الشيء على وزن شب أى اصلح الشيء وعالجه ليتم صلاحه ، كما تعنى التربية معنى الابداع والانشاء والسيادة يقال ، رب الرجل قومه أى سادهم ، ومن هنا جاء قول الله تعالى « الحمد لله رب العالمين » اى خالق الكائنات وسيدها .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » أى أدبنى خالقى جل وعلا .

ويمكن ان تكون الكلمة مشتقة من ربى الصغير يربى من باب تعب وربا يربو من باب علا اذا نشأ وترعرع ، ويقال ربيته تربية إذا انشأته .

ثانيا ـــ فى اللغات الاجنبية :

التربية EDUCATION اصطلاح ماخوذ من الكلمة اللاتينية Educat وهى مشتقة من الفعل اللاتينى Educare وهو يعنى « يقود ويوجه » .

وبهذا يتضح ان التربية بمعناها الاشتقاق العربى واللاتينى تشير الى المعنى العام الشامل للتربية والذى يشير الى عملية التنشئة وما يصحبها من تطوير وتحسين .

ثالثا ــ المعنى العام للتربية :

التربية تعنى التنشئة او بمعنى ادق عملية التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى Socialization والمربى هنا اى موضع التربية ومحورها هو الانسان ، ذلك لانه لوصح لنا ان نطلق مفهوم التربية على اية عملية تؤثر فى نمو الكائن الحى وتكيفه وتغيره جاز لنا ان نقول اننا نربى النبات كما نربى الحيوان تماما كما نربى الانسان مادامت كل تلك الكائنات الحية لديها القابلية للزيادة والنمو ولكننا لا نعنى إلا الانسان بهذا المفهوم من التربية فهو ارق جميع الكائنات على ظهر الارض قال تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » وهذا الكرم الالهى يتبلور فى منح الانسان العقل الذى يفضل به سائر الكائنات الاخرى ، وقد ادى هذا الى عملية معقدة من التربية يحتاجها الانسان دون الحيوان والنبات معا ، ويرجع تعقيد تلك التربية الى أن الانسان خلق مزودا بعديد من الغرائز والميول والقوى والدوافع الفطرية والمكتسبة من البيئة وهذه القوى المتعددة لا يمكن الافادة منها الا اذا تعهدها المربى ونمى الصالح منها واقام المعوج ، وبالعكس اذا ترك المربى لتلك القوى الحبل على الغارب دون رقيب أو حسيب أو موجه ما فلاشك انها تتجه الى السلوك الضار بالجميع لهذا كان الاشراف على تربية الطفل وتعهده بالعناية والتدريب والتوجيه من أهم الامور التى ينبغى أن تصاحب الطفل منذ الولادة بل يرى بعض علماء النفس والتربويين ضرورة أن تبدأ تلك العناية ببداية تكون الوليد نفسه جنينا فى بطن أمه وذلك عن طريق تعهدها بوسائل الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسية معا لما لذلك من أثر فعال فى تكوين الطفل نفسه والتأثير على حياته الصحية والنفسية فيما بعد .

وعلى ايه حال فانه يمكننا القول بان « التربية » هى كل عملية أو مجهود أو نشاط يؤثر فى تكوين وتنمية الطفل سواء كان مصدر هذه العملية الطفل نفسه أم البيئة الطبيعية أو الاجتماعية .

وبهذا المعنى تختلف تربية الانسان عن تربية الكائنات الاخرى بما يلى :

١ ــ الانسان هو الكائن الذى يستطيع أن يتكيف ويتأقلم للبيئة التى يعيش فيها لاتكيفا سلبيا وانما تكيف ايجابى بمعنى انه يستطيع أن يعدل ويغير من البيئة نفسها بما يتلاءم ومعيشته وانماط حياته على المدى القريب والبعيد وعلى امتداد العصور .

٢ ــ الانسان حيوان اجتماعى بطبعه لايستطيع ان يحيا اذا انفصل عن المجتمع البشرى مما جعل تربيته خاضعة لاحوال المجتمع من حيث تقدم هذا المجتمع او تخلفه ومن حيث نظم وتقاليد وثقافة المجتمع نفسه ، والانسان كعضو فى المجتمع يربى ليحقق هذه العضوية والتى تتطلب العملية التربوية منه أن يكون عضويته صالحة ايجابية لاسلبية متفاعلة لامتخاذلة .

٣ ــ الانسان هو الكائن العاقل المدرك لعالمه والذين يطلب منه أن يكون له دور فى هذا العالم ، وهذا لايحقق الا بعملية تربوية معقدة وتحتاج الى مران وتدريب طويلين ، وبهذا كانت طفولة الانسان اطول منها فى أى كائن حيوانى اخر ، ولهذا فان درجة رقى الكائن الحى تتناسب تناسبا طرديا مع امتداد طفولة صغاره والعكس صحيح .

التربية ظاهرة اجتماعية .

يرى عالم الاجتماع الفرنسى « اميل دوركايم » ان التربية ظاهرة أو حقيقة اجتماعية Socialfact ذلك لان لها قوة العمومية والالزام فى سائر المجتمعات عبر الزمان والمكان بمعنى ان اى مجتمع من المجتمعات قديمها وحديثها توجد به ظاهرة التربية والتى تنشأ من وجود جيلين جيل الكبار وجيل الصغار ، جيل المعلمين وجيل المتعلمين ، ولايمكن ان يتصور مجتمع ما بدون الاسرة ولايمكن ان تتصور اسرة بدون تربية الاباء للأبناء بها ، اى لا يمكن تصور مجتمع ما دون ان تكون عملية التربية اساسا فى تكوينه واستمراره ، ولكن اسلوب التربية ونمطها ، هدفها وغايتها هو الذى يختلف باختلاف الزمان والمكان معا ، ذلك ان لكل عصر من العصور

أطره الخاصة بالعملية التربوية هذه العملية التى تختلف من حيث بساطتها وتعقيدها ، بدائيتها وحضريتها ، اعتمادها على الأسرة فحسب ام على مؤسسات تعليمه اخرى ، ماتهدف اليه من تكوين الناشىء على شاكله الاباء ام تهدف الى تكوينه مواطنا اخر كان يكون رجل علم أو سلاح أو دين .... الخ لهذا يعرف « دوركايم » التربية تعريفا موضوعيا فيقول لابد لتعريف التربية ان نضع فى تصورنا عنصرين هامين هما :

العنصر الاول : وجود جيلين فى المجتمع الذى نتحدث عن التربية فى محيطه جيل يعلم واخر يتعلم او جيل الكبار وجيل الصغار .

العنصر الثانى : عنصر التفاعل أو التأثير الناشىء عن تدريب الجيل الاول للجيل الثانى ، ففى هذين العنصرين تكمن العملية التربوية .

ويرى « دوركايم » ان التربية اعتمدت اساسا على العنصرين السابقين فان الانسان والنظم التربوية هى التى تختلف من عصر الى عصر ومن مجتمع الى اخر انعكاسا لما يسميه بالضمير الجمعى La Conscience Collective لهذا كان علينا الا نتحدث عن التربية باعتبارها مفهوما مطلقا من قيود الزمان والمكان وانما ينبغى ان نتحدث عنها كظاهرة اجتماعية تختلف باختلاف المجتمعات والاوضاع السياسية والنظم الاجتماعية ، فاذا كانت التربية فى أثينا قديما تهدف الى خلق العقول المهذبة التى تستطيع أن تتذوق معنى الجمال وتتبارى فى الجدل الفلسفى والحوار المنطقى ، فانها كانت تختلف فى « روما » اذ تهدف الى اعداد الاطفال فيما بعد ليكونوا رجال كفاح وسلاح ، ولقد كانت التربية فى صدر العصر الاسلامى تهدف الى تكوين الانسان المسلم المؤمن بربه المعتز بدينه المدرك لتعاليم شريعته وفى نفس الوقت المهتم بشئون حياته الدنيوية ، وعلى اساس ان الدين الاسلامى هو الدين الذى يجمع بين الدين والدنيا يقول الاثر الاسلامى « اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا واعمل لاخرتك كانك تموت غدا » وقد كان هذا يختلف

عن هدف التربية المسيحية فى العصر الوسيط اذ اتسمت بالمسحة الدينية[1] البحتة وكان هدفها تكوين الراهب القابع فى معبده وفى عصر النهضة اتجهت التربية اتجاها دنيويا وادبيا معا اما فى عصرنا الراهن فقد اصبح العلم وتكوين الانسان المدرك لحقائق التكنولوجيا هدفا من اهداف التربية العديدة، بعد أن كان الفن قديما يحتل هذه المكانة ، اما التربية فى مجتمعنا الاسلامى الراهن فان هدفها ينصب على المزاوجة بين غرس مبادىء الدين الحنيف خاليا من البدع والشوائب فى نفوس النشء من جهة وتكوين العقلية العلمية المتفتحة والتى تساير ركب التقدم بين الواقع والنظر اى اذا كانت التربية عملية تدرس الاثر الناشىء عن تدريب جيل الكبار لجيل الصغار كما هو فى الواقع عبر الزمان والمكان فان البيداجوجيا هى الافكار والنظريات العامة التى تعتمد عليها هذه التربية ، وبهذا فاذا كان موضوع التربية افعالا وممارسات فان موضوع « البيداجوجيا » افكار ونظريات ، ولهذا فان بيداجوجيا كان من رابيليثه Ranallais وروسو J.J Rousseau الفرنسيين كانت تتعارض مع التربية فى عصريهما حيث كانا يدعوان لاراء ونظريات تربوية لاتتفق وواقع العملية التربوية السائدة فى هذا العصر ، ولهذا فان الفكر البيداجوجى قد ينقطع فى بعض العصور والشعوب التى لاتزدهر فيها الحركة الثقافية أو يسودها الفكر المتخلف الذى لايرقى الى « تنظير » حياته الفكرية ، وعلى العكس فانه لايوجد شعب او عصر ما لم تستمر به العملية التربوية فهى كما اشرنا قبل وجدت منذ وجدت الحياة الاسرية ومنذ وجد بها جيلان احدهما يعلم ويربى والاخر يتعلم ويربى[2] .

ولما كانت البيداجوجيا علما Science فان لها كل الخصائص التى تميز العلم من حيث وضع ظواهره وفروضه موضع التحقيق والاختبار والملاحظة .

---

(١) على عبد الواحد وافى ــ عوامل التربية ــ الطبيعة الاولى ــ القاهرة ص ــ ١٤ ــ ١٥ .

(٢) زكى محمد اسماعيل : انثروبولوجيا التربية دراسة نظرية ميدانية فى قبيلة الشلك بجنوب السودان الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ الاسكندرية ١٩٨٠م .

ومن الاهمية ان نشير الى أن اقدر التربويين لايستطيعون خلق مذهب تربوى ما من العدم ، فالمناهج التربوية على اختلاف اتجاهاتها ـــ وان لم تكن تعبيرا مطابقا للنظام التربوى فى المجتمع ـــ الا انها بمعنى ما استخلاص منه وتعبير عنه سواء بالاضافة او الحذف او التعديل وبعبارة اخرى نقول . ان انماط واساليب التربية فى مجتمع ما توحى « ببيداجوجيا » هذا المجتمع ان كان من المجتمعات الناضجة التى تتيح له « تنظير » التربية اى صياغة فكر نظرى يعبر عنها ويتحدث عن وقائعها فمثلا لايمكن للفكر التربوى الاسلامى ان يتحدث عن « بيداجوجيا » فى مجتمعه الا اذا ارتبطت بطبيعة التربية الاسلامية ، وكان فكر تلك التربية محور نظرياته واتجاهاته التكنولوجية الراهن من جهة اخرى فلا تعارض بين تلك النزعة العلمية والنزعة الاسلامية لأن الاسلام دين يحض على العلم والحصول عليه قال عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

ويرى « اميل دوركايم » ان على التربية ان تنمى القدرات الجسمية والعقلية والعاطفية فى نفوس النشء وذلك ليتكيف الفرد مع مجتمعه الكبير من ناحية ، ومع ماتتطلبه وحدته الاجتماعية الصغيرة التى ينتمى اليها كأن تكون اسره أو هيئة أو مؤسسة ... الخ من ناحية أخرى ، وليتحقق للمجتمع البقاء والاستقرار فلا بد ان تسوده درجة كافية من التجانس بين افراده والتربية وحدها هى التى تحقق هذه الدرجة المنشودة من التجانس .

وينتهى دوركايم ليعرف التربية بانها « ذلك الاثر الناشىء عن تدريب الاباء أو جيل الكبار للاجيال الناشئة فى مجتمع ما ، ويتركز موضوع التربية حول تنمية القدرات الجسمية والخلقية والعقلية للناشىء طبقا للنمط الذى تتطلبه الدولة من ناحية وجماعته التى ينتمى اليها من ناحية اخرى .

التربية والبيداجوجيا :

كثيرا مايحدث الخلط فى الدراسات التربوية بين مفهومى « التربية » و « البيداجوجيا » بيد انه يمكن التمييز بينهما ، فاذا كانت التربية كما سبق ان المحنا هى الاثر الناشىء عن تدريب الاجيال الناضجة للاجيال التى لم تنضج بعد لمواجهة الحياة الاجتماعية سواء كان هذا التدريب شعوريا أولا شعوريا مما يجعل من التربية عملية تلقائية مستمرة ، فان مفهوم « البيداجوجيا » لايتعلق بنظريات الفكر التربوى وبهذا المعنى فإن البيداجوجيا نوع من التفكير الذى يعتمد على الحقائق والوثائق ما أمكن بحيث يتهيأ لهذا التفكير أن يكون فى خدمة من يمارسون التعليم وبعبارة اخرى اذا كانت التربية

طبيعة التربية :

سبق أن أشرنا إلى أن العملية التربوية تعتمد فى جوهرها على اساسين هامين هما :

ا ـــ وجود جيلين جيل الكبار الصغار ، أحدهما يعلم والاخر يتعلم ، وهذا يرجع الى نشأة الاسرة نفسها وقيام الاباء بتربية الابناء بصرف النظر عن نوع وهدف هذه التربية .

ب ـــ حدوث التفاعل الناشىء بين الجيلين أى الاستجابة التى تتم بين المعلمين والمتعلمين وفى هذه الاستجابة ومن خلال هذا التفاعل تتم العملية التربوية .

واذا كان هذا هو جوهر العملية التربوية فانهما تختلف من حيث المظهر والهدف والوسيلة باختلاف الزمان والمكان ، ذلك ان الانسان منذ اقدم العصور حاول تحقيق وجوده والسيطرة على الطبيعة بالقدر الذى يستطيع ان يحقق به ذلك طبقا لاتساع مداركه وماتوصل اليه من فهم للطبيعة نفسها ، اد لا يمكن ان نتصور انسانا منعزلا عن المجتمع ، فهذا لاوجود له الا فى خيال الروائيين ، والانسان فى نموه خاضع للتفاعل المستمر بين المجتمع والبيئة والمادة من ناحية وقواه

ومواهبه واستعداداته الفطرية من ناحية اخرى ، وطبقا لهذا فان حاجات الانسان ومطامحه وتطلعاته تختلف من مجتمع لاخر ومن زمن لاخر اى تختلف باختلاف الزمان والمكان فالعصر الذى كان يكتفى فيه الفرد بالصيد والاعتماد البحث على ماتجود به الطبيعة دون تدخل منه تختلف تماما عن العصر الذى استخدام فيه البغال والحمير والجمال أساسا لانتقاله من مكان لاخر وهذا يختلف بدوره عن عصر القطار والسيارة والباخرة ، وهذا الاخير يختلف عن عصر النفاثات وعابرات القارات والاقمار الصناعية ... الخ وكذلك تختلف البيئة فى نوعها فسكان الجبال يختلفون عن سكان السهول والوديان ، وسكان البيئة الصحراوية يختلفون عن سكان البيئة الزراعية ، وأهل الريف غير أهل الحضر ، وسكان المناطق الاستوائية يختلفون عن سكان المناطق الباردة من حيث الثقافة والبناء الاجتماعى وما تمليه البيئة من أطر خاصة تتسم بها العادات والتقاليد والقيم واساليب الحياة ولما كانت التربية كما اسلفنا ـــ هى العملية التى صاحبت الانسان منذ نشأته ومنذ وجود الاسرة فانها تتغير وتتطور تبعا لطبيعة التغير الاجتماعى عبر الزمان والمكان وماذا نظرنا الى ايه جماعة من الجماعات أو امة من الأمم فى ايه صوره من صور الانسانية البدائية أو التقليدية أو الراقية وجدنا ان تطور التربية فيها انما هو مظهر من مظاهر التطور الاجتماعى لهذه الجماعة أو تلك الامة ونقصد بالتطور الاجتماعى كل ما يؤثر فى حياة المجتمع واسلوب معيشته ، ومستواه التكنولوجى سواء من الناحية الاقتصادية أم السياسية أو الاجتماعية أو الدينية .

والواقع أن التطور الاجتماعى أو التغير الاجتماعى بمعنى ادق يكون نتيجة لعاملين هما :

ا ـــ عامل داخلى ينشأ نتيجة مايحدث فى الأمة من تطور تدريجى فى القوانين ونظم الحكم وعلاقة الافراد ببعضهم البعض وعلاقتهم بالجماعات المختلفة ، وقد يكون هذا التغيير فجائيا كما حدث بظهور الاسلام وماتبعه من دعوة للرسول عليه الصلاة والسلام الى دين الحق دين التوحيد ونبذ ديانه الشرك وكما حدث فى تركيا على يد مصطفى كمال وادى الى انقلاب

فى حياة الامة العربية والامة التركية وكما حدث فى المانيا النازية وإيطاليا الفاشية وروسيا الشيوعية . فقد كان مايحدث فى المدارس فى هذه الامم الاربعة صورة لهذا التغير الاجتماعى والسياسى اى أن تربية النشء كان يراد بها ان تكون صدى للنظام الاجتماعى السياسى الجديد .

ب ـــ عامل خارجى . ويحدث فى الأمة نتيجة صلاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالامم الاخرى . فالاندلس التى امتزجت ثقافتها بالثقافة العربية زمنا ما تأثرت بتلك الثقافة ولو ظل العرب بها لكانت غير ما هى عليه الان ، عربية الوجه واليد واللسان ، وقد كان لظهور جامعة الدول العربية اثره فى اتجاه التربويين العرب الى توحيد المناهج الدراسية[1] بهذه الامة من ناحية وتقريب ثقافاتها الى حد كبير من ناحية اخرى ، وبعد قيام الجامعة عقد أول مؤتمر ثقافى بلبنان عام ١٩٤٧ يمثل جميع البلاد العربية الاعضاء فى الجامعة وكان من بين أهدافه التقريب بين مناهج الدراسة وتحديد قدر مشترك من تلك المناهج فى كل من اللغة والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية . ومما سبق ندرك أن التربية فن متطور مرن تتأثر بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مجتمع ما ، وتكون صدى لتلك البيئة تترجم عنها ، وتعتمد عليها كما أنها تتكيف لتلبى حاجات المجتمع المتطور بالذات ، ففى القرن التاسع عشر حين نشطت الصناعة والتجارة وقويت المنافسة بين الدول الاوربية الصناعية ، عملت الحكومات على ادخال العلوم الطبيعية التجريبية فى المدارس وجعلها جزءا من المنهج ، وفى المملكة العربية السعودية بعد أن نشطت الحركة الصناعية بها ، واصبح البترول يشكل الجزء الرئيسى من اقتصادياتها ، دعت الحاجة الى انشاء جامعة خاصة للبترول لها مناهجها واهدافها وخطتها الدراسية الخاصة بها ، كما اتسع نطاق الكليات الجامعية بها فاصبحت تشكل كليات الطب

---

(١) صالح عبد العزيز ، عبد العزيز عبد المجيد ، التربية وطرق التدريس ـــ الطبعة الثانية ـــ دار المعارف ـــ القاهرة ص ٣٠ .

والهندسة والعلوم والزراعة بجانب كليات الشريعة واصول الدين واللغة العربية والدراسات الاجتماعية والاداب والتجارة وغيرها ، كما لوحظ ان انتشار الطيران والمذياع والاذاعة المرئية والهاتف بالدول العربية عامة دعا الى ظهور مدارس فنية جديدة هدفها الاعداد المختصين فى هذه المجالات . الامر الذى يؤكد ويدعم ان التربية عملية فنية تؤثر وتتأثر بالبيئة الاجتماعية .

محور التربية « تربية الأنسان فردا وعضوا فى مجتمع »

لقد اختلف المربون باختلاف عصورهم واتجاهاتهم فى تحديد المحور الاساسى الذى تدور فى فلكه العملية التربوية فمنهم من يرى ان هدف التربية يدور حول الفرد كوسيلة وغاية معا ، ومنهم من يرى ان الهدف الاساسى للتربية هو المجتمع والذى ينبغى أن يكون هو الغاية والمتلقى بصرف النظر عن الفرد نفسه . ولكل من الفريقين وجهه نظره .

فانصار المذهب الفردى يرون أن الفرد هو الغاية الاساسية من العملية التربوية ، ولهذا فعلى المؤسسات التربوية تعمل جاهدة على اعداده بحيث يكون هو المحور والغاية فى النهاية اى بحيث تتحقق له من التربية الحياة السعيدة ويتاح له الامن والطمأنينة ، ويتوفر له الرخاء حتى يمكن أن ينتج الانتاج الوفير لمجتمعه ، اما المجتمع فليس سوى وسيلة للعمل على اسعاد الفرد والنظر اليه ينبغى أن تكون فى المحل الثانى او الأخير بعد النظرة الى الفرد وتوفير كل سبل السعادة له ، وفى هذا يقول برسى نن Persay Mun لاخير يمكن ان يصيب هذا العالم الا عن طريق النشاط المطلق لافراده رجالا كانوا أم نساء والتربية ينبغى ان تتيح لكل فرد الفرص التى تظهر فيها مواهبه وتنمو نموا كاملا جسميا تسمح له طبيعته ويتخذ نفس الاتجاه فيلسوف التربية الفرنسى جان جاك روسو والذى يتحدث عن الفردية التى تكاد تكون مطلقة فى كتابع الشهير « اميل » وهدف التربية فى هذا الاتجاه هى اتاحه الفرصة لتنضج مواهبه ولهذا ينادى « روسو » بان يكون الطفل مركز

العناية ومحور الرعاية ، ودور المربى هو العمل على تنمية مالدى الطفل من قدرات ومواهب فى مرحلة طفولته الاولى ذلك ليصير قادرا على ضبط حريته واستعمال قوته فى التعليم ، وفى تكوين عاداته ومن انصار هذا المذهب الفردى الفيلسوف الالمانى « كانط » Kant والذى يقول « ان وظيفة الحكومة هى مساعدة الفرد على النمو دون أن تستغله أو تستند له ، واحترام كل فرد واجب باعتباره غاية مطلقة فى حد ذاته وانها لجريمة تقترف ضد الانسان ان تتخذ من الفرد وسيلة لغرض ما كائنا ما كان » . كما كان نيتشه الفيلسوف الالمانى من اشد انصار هذا المذهب اذ يقول فى معرض ايمانه بالفرد كهدف نهائى للتربية « ان غاية الانسانية هى الانسان الاعلى لا الجنس البشرى باسره واخر ماينبغى للمفكرين ان يهتموا به هو تحسين الانسانية واصلاحها . فلا صلاح للانسانية بل ليس للانسانية وجود على الأطلاق . وكل مايوجد هو مجموعة من الافراد والمجتمع أداة للزيادة من قوة الفرد وشخصيته وليس غايه فى ذاته لاننا قلنا ان واجب الافراد هو التفانى فى خدمة المجتمع فلأى شىء خلق المجتمع ؟ » .

وهذا المذهب الفردى المتطرف يقابله مذهب الاجتماعية المتطرف كذلك . وانصار هذا المذهب التربوى يرون أن عوامل التربية المقصودة كالاسرة والمدرسة والمؤسسات الأخرى ينبغى توجيهه بحيث تهدف الى تربية الفرد بقصد خدمة المجتمع ولمصلحته بغض النظر عن ميول الفرد ورغباته ونموه التلقائى الحر ، فالفرد وليد لمجتمعه ، والمجتمع هو الغاية التى ينبغى أن ينظر اليها ، وهذا لايتم الا عن طريق إشراف المجتمع مربيه وحكومته وأولى أمره على نظم التربية ومواردها وأهدافها وطرقها ، وليس مهما ان تقتل فردية المتعلم وتتخذ وسيلة لغاية اخرى هى المجتمع ، وقد ظهر لهذا الاتجاه جذوره فى الماضى والحاضر ، فقديما كانت اسبرطة تجعل من التربية هدفا لاعداد الشباب للدفاع عن الدولة وصيانتها ولذا هيمنت الحكومة على تربية الاطفال وتوجيههم ولم يترك للآباء حرية التربية التى يريدونها لابنائهم لدرجة أن كانوا يلقون بالاطفال الضعاف على قمم الجبال للحيوانات المفترسة للتخلص منهم ، كما كان هدف افلاطون من جمهورية المثالية اعداد طائفة

من خريجى جمهوريته تلك الحكومة وفرض نظام صارم حتم تطبيقه فى مختلف المراحل . صحيح انه اعتمد على مواهب وقدرات الافراد ولكنه لم يجعل من هذه المواهب وسيلة للحرية الفردية ، وانما اتخذ منها وسيلة لخدمة الدولة ولتخريج الفيلسوف والحاكم الذى اعتبره من وجهه نظره غاية ماتهدف اليه التربية حيث قال « لن تصلح الدولة الا اذا كان حكامها فلاسفة أو فلاسفتها حكاما » وقد الغى بجمهوريته تلك والتى اتضح فسادها المطلق ـــ نظام الاسرة وضحى بالفردية فى سبيل الاهداف الجمعية . وفى هذا يقول « يقضى النظام الطبيعى أن تقوم الدولة على الاسره وعلى الفرد ، لان الدولة كل ، والفرد والاسره اجزاء ، والكل يجب ان يقوم على اجزائه فالفرد جزء من أمته والغذاء الذى يعطى للجزء يجب أن يتلاءم مع الغذاء الذى يتطلبه الكل وما الفرد الا ملك للامة » .

والواقع أن هذا الاتجاه التربوى الذى يغلب مصلحة الدولة على مصلحة الفرد بل يكاد يلغيها انما ينشأ فى الغالب عن ظروف تحيط بالجماعة وتكاد تؤدى الى كارثة تحتويها كما فى حالة الأزمات والحروب والكوارث الامر الذى يجعل المربين واولى الامر يفكرون فى انقاذ الجماعة والحفاظ على كيانها مهما كلف ذلك من تضحيات فردية ، وقد اتضح ذلك جليا فى صدر الاسلام حين اهاب الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين ان يتضافروا ويتعاونوا لقتال المشركين « قاتلوهم حيث ثقفتموهم » ، « واخرجوهم من حيث اخرجوكم » « وقاتلوا المشركين كافة » « من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وفى حالة الازمة التى تحيط بالمسلمين يخاطب الله نبيه الكريم بقوله « يأأيها النبى حرض المؤمنين على القتال » .

وفى تاريخ الامم نرى انه كلما حلت ازمة خطيرة بالامة كان من أهم اهداف التربويين الدعوة إلى تعبئة الامة فكريا وتربويا لاجتياز الازمة عن طريق التضحية بالفرد فى سبيل الجماعة ولكن هذا امر لا بأس به فى مثل تلك الظروف الطارئه .

اما الغاء الكيان الفردى فى سبيل الجماعة او الدولة كمبدأ أو اتجاه دائم كما تفعل البلاد الشيوعية التى يهمها التضحية بالفرد ، وعدم الاهتمام بتدعيمه والمحافظة على حريته وتلقائيته كفرد ، او الغاء الكيان الجماعى فى سبيل حرية الفرد وتلقائيته على حساب الدولة كما سبق أن اشرنا فكلاهما اتجاه متطرف ترفضه التربية السليمة التى تنادى بالفردية والجماعية معا ، ذلك لان الفرد لايمكن ان يستكمل نمو فرديته الا بحياته مع غيره ، فهو عضو فى جماعة لايمكن ان يستغنى عن الحياة بدونها ، كما أنه لايمكن ان يؤدى دوره كاملا فى جماعته الا اذا ترك لقواه ومواهبه النمو الكامل حتى يتخذ مكانه فى هذه الجماعة التربية الصحيحة اذ أن هى التى تجمع بين الهدفين الفردى والجمعى . اى تنمى قوى الفرد وتطلق لمواهبه وملكاته العنان حتى تصل الى اقصى منسوب لها من النضج وذلك لتكون فى خدمة الجماعة وتحقيق اهدافها .

وتعد التربية الاسلامية النموذج الامثل فى تحقيق الفردية والاجتماعية معا . فالانسان هو الكائن الذى كرمه الله سبحانه وتعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ولهذا فرأى الفرد فى مجال الجماعة ، واحترام الجماعة لرأى الفرد مما تحث عليه التربية الاسلامية « وآمرهم شورى بينهم » ثم أن الانسان الفرد المنعزل عن الجماعة البعيد عنها بمشاعره وخبراته وتجاربه لامجال له فى المجتمع الاسلامى الذى يحث على التعاون والتكافل « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ويقول تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

الفصل السابع

علم التاريخ

مفهوم علم التاريخ .

اختلف علماء التاريخ حول تحديد مفهوم التاريخ وماهيته من حيث كونه علما أم فنا أم أنه يدخل فى مجال الادب القصصى ، او المتعة الادبية ، فالدكتور ج .ب . بيورى J.B Bury (١٨٦١ — ١٩٢٧)(١) يرى « أن التاريخ علم لااكثر ولا اقل » ولكن الفلاسفة الطبيعين عارضوه بشده ورأوا ان التاريخ لايمكن ان يرقى الى مرتبة العالم ، اذ ان للعلم قواعد واصولا لايمكن ان تتوفر للتاريخ بينما يرى رجال الادب ان التاريخ فن ادبى ومنزلته بهذا اسمى بكثير— من وجهه نظرهم — من العلم ، وحجتهم فى ذلك ان التاريخ يحتاج الى صياغة ادبية رصينة تتطلب مزيجا من الخيال وبراعة التصوير ، ودقة التصور واحكام الحبكة القصصية التى تحتاجها كتابة التاريخ وتسجيله .

ويفصل الفلاسفة الطبيعيون وجهه نظرهم فى أن القارىء لايمكن أن يرقى درجة العلم الى أن مادة التاريخ تختلف فى طبيعة دراستها واهدافها ومنهجها عن مادة العلم الطبيعى التجريبى Natural Science فى أمور عديدة منها(١) .

(١) المادة التاريخية مادة فضفاضة غير ثابتة وليست قابلة للتحديد بعكس العلم المحدود المادة التى تخضع للاختبار والتجريب .

(٢) من الصعب معاينة الوقائع التاريخية وملاحظتها ملاحظة مباشرة كما هو الحال فى وقائع وظواهر العلوم الطبيعية .

---

(١) اشهر مؤرخى بريطانيا فى الربع الاول من القرن العشرين ، ساهم فى اصدار مجموعتى كامبردج للتاريخ القديم والمتوسط .

(٢) راجع « علم التاريخ » لهرنشو Heanshaw ترجمة عبد الحميد العبادى طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٤ الفصل الاول « هل التاريخ علم ؟ » .

(٣) الملاحظة والتجربة العلمية وفرض الفروض القابلة للتجريب المعملى وهى اساس المنهج العلمى أمور ممكنة فى الدراسة التاريخية التى تعالج ماضى الانسانية .

(٤) كل واقعة من وقائع التاريخ المسلم بها واقعه قائمة بذاتها ، ويستحيل لها أن تتكرر بنفس الوقائع والظروف والملابسات ، كما يندر أن تكون هناك ظروف مماثلة تماما ليتكرر وقوعها ، الامر الذى يجعل من المتعذر الوصول فى دراسة التاريخ الى تعميمات لو قضايا أو نتائج ثابتة تماثل قضايا وتعميمات القوانين العلمية .

(٥) مادة التاريخ من المواد المركبة والمعقدة ، والتى تتشابك فيها عوامل انسانية واجتماعية وظروف خاصة ، وليس هناك اتفاق ما بين المؤرخين على ما هو هام من الوقائع وماليس بهام ، هذا بالاضافة الى انها مادة تدخل فيها عنصر المصادفة الذى يهدم اى تقدير سابق ، ويحبط أية محاولة تقوم على فكرة تسلسل الحوادث أو اظهارها اطرادا لايعتريه الخلل ، كما يهدم التاريخ فكرة التنبؤ التى تعد من أهم اسس القانون العلمى . وذلك لما يحمله التاريخ من عنصرى المصادفة والمفاجأة معا . وهما من العناصر التى تقلب الموازين وتحطم الحسابات المتوقعة ، كما حدث فى عديد من المعارك والحروب العديدة التى غيرت وجه التاريخ .

(٦) ان ماتتسم به الحادثة التاريخية من دواعى شخصية ، ومن حرية الإرادة التى لايمكن اهمال فاعليتها التاريخية ، يجعل اقامه التاريخ على اسس علمية مجهودا ضائعا يدعو الى السخرية وعدم الجدية ، ولهذا يقول جيفنز W.S.S Jevons انه من السخف ان نفكر فى التاريخ على انه علم بالمعنى الصحيح » .

---

(١) عالم انجليزى (١٨٣٥ — ١٨٨٢) من علماء الاقتصاد والمنطق ، اشهر مؤلفاته كتاب اصول العلم Principles of Science .

رأى رجال الادب فى التاريخ

يرى رجال الادب أن التاريخ كائنا ما كانت هويته اى من حيث كونه علما ام غير علم فهو — فى رأيهم — فن من الفنون ، لأن العلم حين يعطى رأيه فى التاريخ فلن يعطى سوى عظام يابسة جافة ، وان خيال الشاعر وبراعه الفنان هى وحدها التى يمكن ان تبث الحياة فى هذه العظام ، ولن يتم هذا الا ببراعة الكاتب ، وحس الفنان ، وخيال الاديب ، ولهذا فان التاريخ فن لايقبله جفاف العلم ، ولا حياد العالم ، وانه ادخل فى باب الادب والفن الذى يعنى بشئون النفس الحساسة ولهذا يقول المؤرخ الانجليزى تريفيليان G. M. Trevelyan من كان فاقدا الانفعال والحماسة فقل أن يؤمن بانفعالات غيره ، ثم أنه لايمكن أن يدرك هذه الانفعالات بحال ما .

ولكن المؤرخ الانجليزى « هرنشو » يرى أن الجدل المحتدم بين العلماء والحكماء فى الحكم على التاريخ من حيث هويته العلمية أو الفنية أمر من الصعوبة بمكان لايوضح موضع المناقشة والتقييم الا اذا حددت المفاهين اساسا بحيث يوضح لكل مفهوم تعريفه الجامع المانع ، ولهذا ينبغى تحديد مفهوم كل من لفظ تاريخ ولفظ « علم » .

تعريف « هرنشو » للتاريخ .

يرى « هرنشو » ان كلمة التاريخ تطلق على معان ثلاثة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا

(١) فهو يطلق من باب التجوز فى الاستعمال على « مجرى الحوادث الفعلى حين نتحدث عمن يسمون « بموجدى أو صانعى التاريخ » اى الرجال الذين غيروا وجه التاريخ وتركوا بصماتهم واضحة قوية فى سجلاته ، وهو استعمال خاطىء .

(٢) يراد بالتاريخ « التدوين القصصى لمجرى شئون العالم كله أو بعضه » ويرى أن استعمال التاريخ بهذا المعنى اهم استعمالاته ولا غبار عليه ، وبهذا فان لدينا تواريخ العرب والاسلام واوربا وتاريخ الفن والعلم والادب والاقتصاد والسياسة .. الخ وهنا يمكن التساؤل عما اذا كان التاريخ علما أم فنا . فلو قلنا ان التاريخ قصة فهو ادخل فى باب الإنشاء الأدبى . والإنشاء فن لاعلم . ولكن صناعه الإنشاء الأدبى حين تنصب على التاريخ فان المعنى الذى يعبر عن هذا هو « التاريخ » أو « كتابة التاريخ » Historiography وفى هذا الاطار يعد التاريخ فنا بطبيعة الحال .

(٣) يفيد التاريخ معنى « البحث » أو التعلم بواسطة البحث أو « المعرفة التى يتوصل إليها عن طريق البحث وهذا المعنى يتفق مع مفهوم العلماء العرب للفظ التاريخ .

يقول سفيان الثورى « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ « اى التحقيق والضبط » .

ويمكن أن يقرب المعنى للقارىء كما يرى هرنسو — لو تصور التاريخ نهرا مادته هى المعنى الأول المتصل بمجرى الحوادث الفعلى ، أما وصف كل هذه الحوادث أو بعضها عن طريق الحكاية التاريخية فهو المقصود بالمعنى الثانى الذى يشير إلى التدوين القصصى لمجرى شئون العالم كله أو بعضه ، أما معرفة حقيقة هذه الحوادث فهو المقصود بالمعنى الثالث معنى البحث أو التعلم عن طريق البحث .

معنى العلم :ـ

إذا كان تعريف التاريخ على النحو الذى سبق أن عرضه المؤرخ الانجليزى « هرنشو » فان العلم يعرفه اللورد أكتن Lord Acton على أنه « اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماع تلك الوقائع نتيجة عامة على

هيئة مبدأ أو قانون يمكننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة للواقع المذكور فى ظروف معينة وفى ضوء هذا التعريف الذى يجعل موضوع العلم قائما على وقائع متشابهة ومتناظرة لايمكن أن يكون التاريخ علما لاعتماده على وقائع وحوادث لاتتكرر عبر التاريخ الانسانى بحال ما ، ورغم هذا فان المؤرخ الانجليزى يرى أن التاريخ دائم البحث وراء التعميمات او التلمس للقوانين ، وفى نفس الوقت فإن المؤرخ شديد الحرص على أن تكون لديه ملكة التنبؤ التى هى من أخص خصائص العلم ، هذا التنبؤ الذى يعتمد على الحكم على المستقبل ارتكازا على حوادث الماضى ووقائعه ، وعليه فانه لاينبغى أن يجرد التاريخ من صفة العلم حتى ولو عجز عن الوصول إلى الأهداف التى يهدف إليها ويسعى وراءها العلم ، لان العلم فى مجال الظواهر الطبيعية نفسها ــ وهى مركز ثقله وجوهر موضوعه ــ لم يصل بعد الى درجة الدقة واليقين ، وعليه فان « هرنشو » يرى أن يعرف العلم تعريفا جامعا مانعا وبسيطا على أنه « المعرفة المنظمة ، المبوبه ، المقننة » وأنه اذا اتفق العلماء على ذلك أمكن إسناد صفة العلم إلى أيه دراسة يقوم بها الإنسان الذى يعرف غايته ويبذل جهده فى توخى الحقيقة ، وبحيث يكون على جانب من الفهم الذكى للبحث عن كل ما يتصل بالحقائق من ناحية ، وطرح كل حكم متحيز يعتمد على هوى النفس من ناحية أخرى . ويرى هكسلى T.H. Huxley فى العلم « كل معرفة تعتمد على الدليل والاستنباط » بينما يرى الكسندرهل A. Hill أنه « كل معرفة معقولة روعيت فيها الاوضاع الصحيحة » بينما يرى كارل بيرسن K. Pearson أن وظيفة العلم تنحصر فى تقسيم الوقائع ومعرفة تتابعها وأهميتها النسبية « بينما يعرفه تيجارت F.J. Teggart بأنه « البحث المنظم للتصرفات التى تبدو فى الظواهر الطبيعية » .

وعلى ضوء هذه التعريفات التى لاتقيد العلم بالبحث فى مجرد الظواهر الطبيعية التى تخضع للملاحظة والتجريب فانه لاينبغى اسقاط التاريخ من دائرة العلم ، ذلك لأنه يعالج حوادث الانسان وتتابعها عبر الزمان التاريخى . وان كان للتاريخ كعلم نوعية خاصة ، فهو ليس علم ملاحظة مباشرة كالفلك ، ولا علم تجربه

علمية مقصودة ومقننة كالكيمياء ، وإنما هو علم نقد وتحقيق وتحليل اقرب مايكون شبها الى الجيولوجيا التى تدرس طبقات الارض كما هى ، وذلك فى محاولة لمعرفة الجيولوجى كيف اصبحت الارض كما هى عليه وقت دراستها ، وهو فى هذا كالمؤرخ الذى يدرس الآثار المتخلفة عن الماضى ليفسر بواستطها وبقدر ما حملته ظاهرة الحاضر وكما يعتمد الجيولوجى فى دراسته على البقايا التى خلفتها الارض كأدلة تثبت التطورات الجيولوجية المتتابعة فان المؤرخ يعتمد على الوثائق المادية والسجلات او القيم والتقاليد والاعراف التى تسلم مصادقة من تقلبات الزمن ليجد بها ومنها الحقائق المحسوسة والوسائل العلمية الملموسة التى ينصب عليها عمل المؤرخ ويجدُّ فيها مادة علمه ، ورغم انها ادلة ليست قيمة فى ذاتها الا أنها على جانب كبير من الاهمية لالقائها الضوء على الحقائق الماضية ، على أن يلتزم المؤرخ التزاما كاملا باسقاط كل اسباب الخطأ وتحرى الصواب والتزام الموضوعية التامة فى حكمه ، ذلك لان هذه الوقائع والاثار انما صدرت عن بشر يخضعون لارادتهم وانفعالاتهم والتى كانت تلك الوقائع اثر معبرا عنها أو لها ، وهى ارادات كما سبق أن اشرنا غير خاضعه للتجربة المباشرة على الاقل فى الماضى البعيد الذى وقعت فيه ، والمؤرخ ينصب عمله على البحث عن هذه العوامل الخفية التى تحرك الناس وتدفعهم للعمل بحثا عن الحقائق الثابتة على مر الزمن .

بين التاريخ والتأريخ :

وفى كتابه « فهم التاريخ » **Understsnding History** للمؤرخ الامريكى لويس جوتشلك **L. Gottschalk** يرى أن الكلمة الانجليزى **History** التاريخ مشتقة من الكلمة الاغريقية « هستوريا » بمعنى التعلم او انها كما عرضها ارسطو « السرد المنظم لمجموعة من الظواهر الطبيعية سواء رتبت ترتيبا زمنيا أو وردت غير مرتبة » ، ويرى أن هذا الاستخدام رغم ندرته الحالية فانه لايزال شائعا فى اصطلاح التاريخ الطبيعى **Natural History** والذى يطلق على تاريخ الاجسام الحية من حيث بيئتها وتطورها ووظائف اعضائها ، بينما تعنى كلمة « تاريخ » فى استخدامها الاكثر شيوعا « ماضى الانسانية » وبهذا المعنى لايمكن ان يعاد بناء التاريخ لامن الناحية

العقلية ولا حتى من ناحية التذكر الكامل للاحداث البشرية فحتى هؤلاء الذين وهبهم الله تعالى اقوى الذاكرات لايمكن لهم ان يتذكروا تفصيليا الماضى الخاص بهم .

وللتاريخ سجلات يركن اليها ويهتم بها كثيرا فى مقدمتها الوثائق المكتوبة والمخلفات الانسانية الانثروبولوجية التى يمكن أن يعثر عليها المؤرخ والانثروبولوجى الطبيعى تماما ، كالعملة المسكوكة ، او قطعة فخار مكسورة أو صور شخصية أو اختام أو نقود أو بقايا عظمية أو جمجمية .... الخ . ومع هذا فان تلك المخلفات ليست هى الحوادث أو الوقائع ، وحتى الوثائق المكتوبة ليست الا نتائج للحوادث ، وعلى اية حال فان هذه المواد الخام هى التى يمكن أن يستخلصها التاريخ .

والتاريخ History بتسهيل الهمزة يختلف عن التأريخ باثبات الهمزة وكما اشرنا فان كلمة التاريخ عند العرب تفيد معنى العلم من تحقيق وضبط ، أما كلمة « التأريخ » فتفيد عندهم مطلق التعريف بالوقت ، بحيث يمكن القول أرخ لكذا أى ضبط الوقت وحدد الزمن ، وعليه فالتأريخ اسلوب للاداء ، وهو بهذا فن من الفنون ، وعلى أيه حال فان لفظة التأريخ تطلق تارة على الماضى البشرى ذاته ، واحيانا على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضى ورواية اخباره أو انه العلم الذى يعنى بهذا الموضوع[1] ، ولهذا فان هناك لبسا بين مفهومى التاريخ والتأريخ ، ويجد المؤرخون صعوبة فى الفصل بينهما ، وذلك ناشىء عن شعور اصيل فى الانسان بالارتباط الوثيق بين معرفة الماضى والماضىٰ ذاته . وكون التاريخ ينصب على الماضى فانه يتميز عن المجهودات الانسانية الفكرية التى قد تعالج الحاضر والمستقبل ، وان كان من الصعب الفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل على اساس أن الحياة فى سريانها وحده متكاملة لاانفصام بين ذرات الزمن أو ديمومة التاريخ أو تعاقب الحوادث فيها ، والمواقف المتخذة من الماضى تتأثر بمعتقدات الحاضر وامال

(١) قسطنطين . نحن والتاريخ . مطالب وتساؤلات فى صناعة التاريخ وصنع التاريخ . دار المعلم للملايين . بيروت الطبعة الاولى ١٩٥٩م ص ١٣ .

المستقبل ، كما ان العلوم الأخرى لاتهمل الماضى ، بل ان لكل منها تاريخها الخاص بها كتاريخ النظم الاقتصادية والطب والهندسة والفلسفة والسياسة والادب وسائر المعارف البشرية التى يلجأ المختصون فى دراستها الى التأريخ لها بحيث يمكن القول بانه حيث يوجد تغير وتراكم فى الحياة البشرية يوجد مجال للتاريخ ، ولهذا فان التاريخ لايبتعد عن أى حقل من حقول الانتاج البشرى وانما يعمل على اقتحامها متتبعا التغيرات التى طرأت عليها والمراحل التى اجتازتها .

موضوع التاريه واهدافه :

لما كان التاريخ ينصب على دراسة ماضى الانسانية ، وهذا الماضى يتفرع الى عديد من الجوانب المختلفة كالسياسية والاقتصادية والدينية .. الخ لهذا فان تحديد موضوع التاريخ ينبغى أن يوصف بنوعية التاريخ نفسه ، وعليه تكون الشئون السياسية الماضية للدول هى موضوع التاريخ السياسى ، بينما تكون الشئون الماضية لحركة الانتشار الاسلامى هى موضوع التاريخ الاسلامى ، وهكذا لايذكر التاريخ مطلقا من صفته التى تتعلق بالسياسة أو الاقتصاد أو الدين أو الحرب وهكذا ، وبمعنى اخر فانه ما من وصف توصف به احوال الانسان الا ويمكن ان يوصف به التاريخ ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن التاريخ من حيث مفهومه العلمى لاموضوع له وانما هو مجرد طريقة للبحث ، وذلك لانه لايوجد تاريخ مطلق وانما تاريخ مقيد بوصف مامن اوصاف الحياة الانسانية فى ماضيها .

والواقع ان الهدف من البحث التاريخى أو دراسة التاريخ هو جلاء الحاضر وفهمه والقاء الضوء عليه ، فالحاضر موصول بالماضى ، ولايمكن فصل أى منهما عن الاخر كما سبق ان اشرنا .

ويؤكد بعض المؤرخين على أن المواد التى يبحث فيها التاريخ هى فى الواقع موجودة وحاضره وعليه فان التاريخ لايبحث فى شىء مضى وانقطع وجوده ، وانما يبحث فى وقائع ذات اهتمامات حاضره ، فمادة المؤرخ لاتعدو ان تكون روايات عما وقع او انها اشياء وجدت أم ناتج لاحداث حديث وكلها تشير الى وقائع

واهنة . ثم ان المؤرخ لايستطيع أن ينتزع نفسه من الوسط الذى يعيش فيه ، وان هدفه كمؤرخ هو أن يصل الى فهم محيطه ومحيط نفسه ، الامر الذى جعل الكاتب الايطالى بندتو كروتشى Bendetto Croce يقول ان « التاريخ ليس الا تاريخا معاصرا وان كل من يحمل لقب مؤرخ هو فيلسوف اراد ذلك أم لم يرد » والكاتب الايطالى يقصد بتعبير فيلسوف هنا والذى يلبس المؤرخ لباسه هو أنه اى مؤرخ معبر عن وجهة نظره مهما كان موضوعيا فى تأريخه ، فالمؤرخ ابن وطنه واسير عقيدته ، والمتحدث بلغته ، والمعبر عن التاريخ من خلال وصفه للاحداث وكتابها .

المنهج التاريخى :

اشرنا فيما سبق الى أن التاريخ — من حيث هو علم — يختلف عن العلوم الفيزيقية من حيث انه ليس علم تجربه واختبار وانما علم نقد وتحقيق وتمحيص ، والمواد التى يتحدث عنها التاريخ ليست هى الاشياء التى مضت وانقطع وجودها ، والا كان تاريخها تاريخا ظنيا يعتمد على الحدس والتخمين لا على الوقائع والوثائق ، وعليه فان التاريه يبحث فى الأشياء التى لازال لها صفة الوجود سواء كانت روايات عما وقع من احداث ماضية ، او انها بقايا اشياء ذات مغزى اثرى هام يحفل به المؤرخ ، ام أنها نتائج احداث وقعت ، ويعتمد التاريخ فى منهج بحثه على المراحل التالية .

المرحلة الاولى : مرحلة التجميع .

والمقصود بالتجميع هنا هو تجميع الوقائع التاريخية الصحيحة ، على اساس ان يكون هناك ضابط يرجع اليه فى تمييز الوقائع المهمة من غير المهمة ، وهذا الضابط امر نسبى يختلف باختلاف المؤرخين انفسهم ، فقد كان قدامى المؤرخين يستهويهم من الحوادث التاريخية الماضية ما كان شاذا خارجا عن المألوف أو كان دارميا أو حماسيا ، ولهذا لم يلتفتوا الى الحوادث العادية العابرة فى حياة البشر ، وانما صوروا المآسى والاعمال العظيمة تصويرا رائعا ، وعلى العكس فان المؤرخين المحدثين

يميلون الى اختيار الحقائق التاريخية التى تعينهم فى بيان مراحل التطور الانسانى والعوامل التى ادت اليها وملابساتها ونتائجها حتى وصلت الى الحالة الحاضرة ، وهؤلاء يجدون فى الوثائق الخطية المصادر الاولى التى يرجعون اليها فى هذا الصدد ، وان كانت هناك مصادر اخرى تتعلق بالمبانى او الحصون أو النقوش أو الصور أو العدد ، الا أن الوثائق الخطية تعد فى رأيهم أهم من هذا كله ، مما يجعل بعض المؤرخون يقولون انه لاتاريخ بغير وثائق . وتجميع الوثائق بهذه الصورة يقتضى أن يكون المؤرخ ذا ملكه فنية عالية ، ودارية تامة بفقه اللغة وقراءة النقوش والدبلوماسية حتى يستطيع ان يستفيد من هذه الوثائق ويجد فيها ضالته التاريخية التى تعينه هلى كتابه التاريخ وتسجل حقائقه ، بل ويجد فيها المادة الهامة للنقد والتحقيق .

المرحلة الثانية : مرحلة النقد :

اذا كانت مرحلة التجميع هى المرحلة الاساسية التى يجد فيها المؤرخ غايته فى الحصول على المادة الخام فى معمله التاريخى ، فان مرحلة النقد هى المرحلة التالية والتى يقوم المؤرخ فيها بفحص المادة المجموعة سواء كانت وثائق خطية او مبان اثرية او ادله تراثية ، او رواية شفوية ، وذلك للتثبت من صحتها وقابليتها للتصديق سواء من حيث صحة المصدر أو دقة الرواية ، او كان امكان قابلية العبارة ذاتها للتصديق من حيث المستوى الفكرى والحالة الاجتماعية والقيمة الخلقية عند كتابتها .

المرحلة الثالثة : مرحلة التأويل .

وهى المرحلة التى تلى مرحلة النقد وتسبق المرحلة الاخيرة مرحلة كتابة القصة التاريخية وتحتاج مرحلة التأويل للاحداث التاريخية وتفسيرها والوقوف على معرفة دقائقها تحتاج الى دقة الفكر وسعه الافق والمام تام بالوضوع التاريخى فضلا عن خيال واسع فى نفس الوقت لايخرج عن أضيق حدود الحقيقة .

المرحلة الرابعة : مرحلة كتابة القصة التاريخية

وتلك هى المرحلة الاخيرة التى تعد غاية البحث التاريخى من حيث كتابته وتسجيله وتدوينه ، وهى مرحلة لايتوفر عليها الا الكاتب المؤرخ الذى وهب سعة الخيال ، وبراعة النقد ، ودقة الكتابة ، وغاية البراعة فى الصياغة التاريخية ، وذلك من خلال التزام تام بالموضوعية مااستطاع الى ذلك سبيلا ، وبهذا يبتعد عن الاحكام العفوية الجائرة ، او الذاتية العاطفية ، فالدقة فى الكتابة ، والتأنى فى الحكم ، والقصد فى النقد من أهم الامور التى تسجل التاريخ الحقيقى الذى يحفظ للماضى اهميته ، ويحقق للحاضر افادته .

التاريخ والسياسة .

يرى بعض المؤرخين أن التاريخ عبارة عن سياسة الماضى ، كما أن السياسة تاريخ الحاضر من حيث ان موضوع التاريخ والسياسة موضوع واحد يقوم كلاهما على وقائع زمنية غير معينة كما أن كلا منهما يحاول الوصول الى البواعث الكامنة المحركة لهذه الوقائع وازالة الحجب التى قد تسترها ، وكل من المؤرخ والسياسى لابد له أن يستنبط من مواد غير يقينية ، فالمؤرخ ـــ مهما اوتى من دقة البحث ـــ يعلم ان هناك صعابا تقابله ولا توصله بالتالى الى الحقيقة الثابتة المطلقة ، ويرى « ان التاريخ ليس مجرد مدرسة لتعليم الطرق السياسية ، وانما مستودع للخبرات السياسية السابقة كما أن التاريخ لايعيد نفسه ، ولايمكن له أن يفرض عليه اعادة نفسه وتكرارها بحال ما ، اذ ما من حادثة تحدث ، الا ويزيد التاريخ فى محيط كل حادث ترتب عليه بمقدار كونه علة فى حدوثه . وان كل ما يحدث مره انما يكون سدا مانعا دائما من حدوثه دائما مرة أخرى ، وعليه فان .

التاريخ كالفرد الذى لايمكن ان يجد نفسه مرتين فى موقف واحد بالدقة .

ورغم هذا فكل انسان يجد نفسه عندما تهديه تجاربه الماضية وتدفعه لان يجد فيها من الخبرة والمران مايرسم خطوط حياته الحالية على الاقل ، وكذلك الحال بالنسبة للجنس البشرى ، وان كان الجنس الانسانى يختلف عما يتصف به الفرد

من الشخصية والشعور الذاتى المستمر ، وبما ان الجنس البشرى ليست له ذاكره طبيعية خلق مزودا بها كالانسان فينبغى ان تكون له ذاكره وهذه الذاكرة هى التاريخ والتى يتوافر للجنس الانسانى الشعور الذاتى بها ، وبهذا الشعور الذاتى يمكن له الاستفادة من تجارب الماضى والسيطرة الى حد ما على مستقبله ، وبدون هذا تستحيل عليه مثل تلك السيطرة او بمعنى ادق الانتفاع بتجارب الماضى فى رسم سياسة المستقبل بما يجعله يمضى قدما الى طريق الرقى والتقدم ، يقول الفيلسوف الانجليزى ديفيد هيوم « اذا تأملنا قصر حياة الانسان ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع فى زماننا فلا شك اننا نشعر باننا كنا بنقى اطفالا فى ادراكنا لو لم يقيض لنا هذا الاختراع الذى يرجع بخبرتنا الى جميع العصور الماضية ، والى اقدم الامم الخالية ، ويجعلها تمدنا باسباب التقدم فى الحكمة كما لو كانت تحت انظارنا واسماعنا . ان الرجل المطلع على التاريخ ليمكن ان يقال عنه من بعض الوجوه انه يعيش منذ بداية العالم ، وانه دائم الاستمداد من كل مملكة يمر بها مددا يضيفه الى المدخر المخزون من معارفه »[1] .

وعلى ايه حال فان هدف المؤرخ هو محاولته ان يصل الى الحقيقة فى أمر مضى واندثر عن طريق جهد شخصى لا عن طريق حقيقة واقعية موضوعية . اى أنه يحاول بقدر ما يستطيع الوصول الى حقيقة الماضى بالقدر الذى تسمح به ذاكرته المختزنة للصور العقلية فى حاله تتابعها بطريقة سليمة وصائبة ، لانه يدرك ان الحقيقة التى يبحث عنها افلتت منه ولن تعود الى الابد ، وهنا يكون الاختلاف بين التاريخ والجغرافيا الطبيعية ، اى بين ماضى الانسان وبين دراسة بيئته الطبيعية ، فعلم الجغرافيا الطبيعية يتناول موضوعا قائما بالدرس وهو الكون الطبيعى الذى لايتغير ، اما فيما يتعلق بالتاريخ فليس ثمة الا وثائق ومخلفات مبعثرة لاتكون الموضوع الكلى الذى يتناوله المؤرخ بالدراسة وهو ماضى الانسان لان الموضوع قد اختفى فى اكثره ولا وجود له الا بقدر مايستطيع المؤرخ ان يبعثه ويحركه وهو فهم ناقص كثير التغير ، وحين يفهم المؤرخ موقفه يخف حمله وتنتقل

---

(١) هرنشز ، المرجع السابق من ص ١١٤ ، ١١٥ .

مسئوليته من التزام بمعرفة كاملة بالماضى الى بعث صوره مرجعه لهذا الماضى بالقدر الذى يسمح به الشاهد التاريخى سواء كان وثائق أو روايات أو مبانى أو نقوشا .... الخ وبهذا يصبح التاريخ بالنسبة للمؤرخ ذلك الجزء المحدد من ماضى البشرية الذى يمكن اعاده بنائه من خلال السجلات والوثائق التاريخية المتوفرة ومن الاستنتاجات التى تبنى عليها .[1]

ويؤكد علماء التاريخ على ضرورة التزام الدقة فى استخدام المنهج التاريخى ماامكن ذلك لرسم صوره للماضى بقدر المستطاع ، والمؤرخ تصادفه ــ للوصول الى هذه الغاية ــ عقبات منها النقص المحتمل فى السجلات والوثائق بالاضافة الى عدم دقة التصور الانسانى ، وان كان من الممكن للمؤرخ ان يحاول الوصول الى الماضى الحقيقى « كحد » على اعتبار أن الماضى شىء وقع فعلا ما يستلزم بالتالى وضع حدود واضحة لأنواع السجلات والصور التى يمكن للمؤرخ استخدامها بحيث يتحتم عليه التأكد من أن تلك السجلات تأتية فعلا من الماضى وان واقعها هو الذى تبديه ، وإن خيال المؤرخ نحو بعث الماضى لاتخلقه من جديد ، وتلك هى الحدود الفاصلة التى تميز التاريخ عن كل من القصة الخيالية والشعر والوهم والدراما .

التاريخ عند ابن خلدون :

لقد كان التاريخ لدى العلامة العربى المسلم عبد الرحمن بن خلدون هو المقدمة التى وصل منها الى إنشاء علمه الجديد علم العمران البشرى أو الاجتماع الانسانى وبيان مسائله ومايعرض فيه من العوارض الذاتية أى الظواهر الاجتماعية وتبدل الاحوال فى الامم والاجيال وما لذلك من العلل والاسباب[2] ، ولهذا لم يتحدث عن التاريخ كما وصل اليه مليئا بالمغالطات والمتناقضات ، وانما شك فى هذا شكا منهجيا توصل من خلاله الى أن تاريخ البشر يسير وفق مبادىء اجتماعية وسننا

---

(١) لويس جوتشلك . كيف فهم التاريخ . مرجع سابق ص ٦٢ ص ٦٣ .

(٢) حسن الساعاتى . علم الاجتماع الخلدونى قواعد المنهج الطبعة الرابعة ــ دار المعارف القاهرة ١٩٧٨ ص ٨

خاصة أودعها الله تعالى فى الكون ، ولهذا استخدم اهم مبادىء المنهج التاريخى التى اشرنا اليها مبدأ الشك النقدى الذى استعان به فى تحقيق الروايات وتمحيص الاخبار وهى مادة علم التاريخ الذى يمكن تعريفه بأنه « علم اجتماع الماضى » فالتاريخ عند ابن خلدون » فى ظاهرة لايزيد على أخبار عن الأمم والدول ، والسوابق من القرون الأول ... وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات دقيق وعلم بكيفيات الوقائع واسباسبها عميق »[1]. ولهذا فقد شك كثيرا فيما نقله الرواه والمؤرخين واثبت ـــ بمنطقة الناقد ـــ ان مانقله هؤلاء محض كذب لا اساس له من الواقع ، وبعد أن يستعرض العديد من هذه الروايات المنتحلة يقول « فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك ، وتأمل الاخبار واعراضها على القواعد الصحيحة ، يقع لك تمحيصها باحسن وجه »[2].

ويرجع ابن خلدون اسباب الكذب فى الاخبار الى امور عديدة منها عدم التزام الموضوعية ، والانسياق وراء المعتقدات الذاتية ويسميها « التشيعات للاراء والمذاهب » ويعلل ذلك بقوله « فان النفس اذا خامرها تشيع لرأى أو نحله ، قبلت مايوافقها من الاخبار لاول وهله ، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع فى قبول الكذب ونقله »[3] ويرى أن من اسبابا هذا ايضا الوصولية والانتهازية حين ينسب المتشيع لمن يتشيع له صفات وأعمال لاحقيقة لها الا من نسج الخيال ، ويظهر ذلك بوضوح عندما تدول دولة الاشخاص المتشيع لهم ، وفى هذا يقول ابن خلدون « تقرب الناس فى الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناءوالمدح وتحسين الاحوال واشاعه الذكر بذلك ، فتستفبض الاخبار بها على غير حقيقة ، فالنفوس مولعة بحب الثناء ، والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من حياة أو ثروة »[4]ومن الاسباب التى يراها ابن خلدون داعية للكذب من الاخبار « الثقة بالناقلين » أى الرواة المؤرخين سواء

(١) مقدمة ابن خلدون . .دار احياء التراث العربى ص ٤ .

(٢) المقدمة ص ١٣ ، ١٤ .

(٣) المقدمة ص ٣٥ .

(٤) (٢ ، ٣) ص ٤ ، ٥ .

بالحكاية أو بالكتابة وكذلك ، الذهول عن المقاصد ، فكثير من الناقلين لايعرف القصد بما عاين أو سمع ، وينقل الخبر على مافى ظنه وتخمينه » ويرى ابن خلدون أن المؤرخين لو كانوا على دراية بالقوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية ، او ظواهر البشر العمرانية اى الظواهر الاجتماعية لما وقعوا فريسة لتلك الاخطاء التاريخية التى نقلوها كما هى أو معرفة بقصد أو بغير قصد ، ويرى أن هؤلاء اى المؤرخين قبله « ادوها الينا كما سمعوها . ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها . فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح فى الغالب كليل ، والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل ، والتقليد عريق فى الآدميين وسليل ، والتطفل على الفنون عريض طويل ، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل » .

« فللعمران طبائع فى احواله ترجع اليها الاخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار » .

علم التاريخ والعلوم الاجتماعية

للتاريخ ــ كما سبق ان اشرنا ــ حيزه وخصائصه وطبيعته التى يختلف بها عن العلوم الاجتماعية من حيث اهتمامه بالاحداث الماضية عبر ترابطها وتسلسلها الزمنى وتنوعها وتغايرها بغية الوصول إلى صورة عامة ودقيقة لمجرى الماضى هى اقرب ماتكون الى الدقة ، بينما العلوم الاجتماعية بجوانب من الحياة البشرية فى الحاضر والماضى معا محاولة ان تثبت حقائقها وتصل الى قضاياها وتعميماتها من خلال النظر فى علاقاتها السببية ببعضها البعض لاستنباط هذه القوانين او التعميمات التى تفسر بها هذه الحقائق أو الوقائع موضوع هذه العلوم . بيد أن هذه الغاية التى تسعى اليها العلوم الاجتماعية لايمكن ان يتاح لها من الضغط والدقة والتكميم مايتاح للعلوم الطبيعية التجريبية كالفزياء والكيمياء وعلوم الحياة وغيرها ، على النحو الذى سبق ان أشرنا اليه فى الجزء الاول من هذا الكتاب.

ومع هذا فان هناك مجالات هامة للتعاون بين التاريخ والعلوم الاجتماعية كما يلى :

(١) كل من التاريخ والعلوم الاجتماعية يعتمد على مفهومات اساسية بعضها خاص وبعضها مشترك بينها ، من المفهومات المشتركة مثلا « الحدث » و « الحقيقة المجردة » و « التغير » و « الثقافة » و « المؤسسة أو المنظمة » و « الامة » هذه المفاهيم التى كثيرا ما تستخدم بمفاهين مختلفة حتى بين العلماء المتخصصين فى العلم الواحد انفسهم ، لهذا فان تحرى الدقة للوصول الى مفاهيم محددة ثابتة نتج عنه اعظم الفائدة فى ايضاح تلك المفهومات من ناحية وفى صحة الدراسات المترتبة عليها من ناحية اخرى .

(٢) اذا كانت العلوم الاجتماعية تبحث فى الظواهر المتعلقة بالحاضر كما اشرنا فان دراسة هذه الظواهر لايمكن لها ان تدرس دراسة متكاملة الا من خلال العودة الى ماضيها بما يضفى عليها المسحة العلمية الهامة التى تصل الحاضر بالماضى ، كدراسة التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى للمجتمعات المختلفة ، مما يجعل لكل علم من تلك العلوم الاجتماعية تاريخه الخاص به .

التاريخ والانثروبولوجيا

يرى علماء التاريخ ان الانثروبولوجيا تعد من اوثق العلوم الاجتماعية اتصالا بالتاريخ[1] وذلك لان الانثروبولوجيا وعلماء التاريخ يواجهون مشلات مشتركة عديدة واذا جرى الاثروبولوجيون على دراسة ثقافة الانسان البدائى سابقا فان المؤرخين اعتادوا دراسة ماضى الانسان المتحضر ، وان اختلفت الصورة الصورة الان فاصبح الانثروبولوجى يدرس الانسان فى المجتمع الحضرى ، وان كان ذلك بمنهج الدراسة الميدانية المركزة ويشترك العلمان معا فى أن مادتهما ذات صبغة علمية مما دعا « وليم شتراوس » إلى أن يقول « لااعتقد ان للانثروبولوجيا وجودا منفصلا كالطبيعيات ، وانما هو موجود من حيث إنه ميدان يلتقى فيه كل من لهم اهتمام بالانسان » .

وقد كتب الانثروبولوجى الامريكى الشهير روبرت دفيلد يقول « إن معالجة الناحية الانسانية بالاسلوب الوصفى التكاملى وهو اسلوب المؤرخين التقليدى أسهل من معالجتها بأسلوب العلم القائم على التعميم » ويرى « ردفيلد » « ان قضايا الانثروبولوجيا ليست قضايا عامة وانما قضايا تقبل التطبيق فى مجال الحالات الجزئية موضوع الدراسة أى التى تنطبق على فئات محدودة تحديدا دقيقا[2] ويرجع ذلك الى أن الانثروبولوجيا فى دراستها للنماذج المجتمعية انما تختار نماذج تختلف فيما بينها . ولكل منها بناؤه وثقافته الخاصة بهم وليس يلازم ان تشترك تلك الثقافات والابنية الاجتماعية مع بعضها البعض فى خصائصها ، وانما قد تختلف اختلافا واضحا فيما بينهما .

---

(1) The Social in Historical Study. Published by the social science Research Council. N.Y.U.S.A.

والاشارة هنا الى الترجمة العربية لمحمود زايد — بعنوان « دراسة التاريخ » وعلاقاتها بالعلوم الاجتماعية مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر — بيروت — نيويورك ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٣ ص ص ٢٦ ، ٢٧ .

(2) Kvoeber and Others. Anthropology Today. University of Chicago press. Chicago. pp. 732 ' 635

والانثروبولوجيا تعالج بالضرورة المسائل التاريخية عند دراستها لمجرى التطور البشرى وانتشار الانسان على سطح الارض ، ونشوء الثقافات وتفرعها ، كما ان مناهج علم الاثار والانثروبولوجيا هى فى اساسها مناهج تاريخية وان اتخذت معطيات تتطلبها قضايا كل من العلمين طبقا لتخصص كل منهما

اما الانثروبولوجيا الثقافية Cultiral Anthropology فتهتم بدراسة تاريخ الثقافة والانتشار الثقافى والهجرات والتغير الثقافى ، بينما تهتم الانثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة نماذج معينة من البناء الاجتماعى فى مكان وزمان معينين .

وحين يدرس « علم الانسان » الثقافات فمن حيث ان كل ثقافة وليدة تاريخها وربيبة ماضيها ، والثقافات ليست ثابتة وانما هى متغيرة على الدوام . ويقارن بعض العلماء النسيج الثقافى فى أى لحظة من الزمن « بماللحريرالمتعدد الالوان والذى يعكس الوانا مختلفة باختلاف وجهه النظر ، والعين المدربة هى التى ترى خيوط الماضى وهى تلمع تحت سطح الحاضر »[1] .

---

(١) دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية . مرجع سابق ص ٣٠ .

الفصل الثامن

علم الجغرافيا

مفهوم الجغرافيا:

لفظ الجغرافيا Geography شأنه شان عديد من العلوم الانسانية الاخرى كعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس يتكون من مقطعين اغريقيين هما جيو Geo بمعنى ارض وجرافى Graphy بمعنى وصف او صورة وبهذا يصبح المعنى اللفظى للجغرافيا « وصف الارض » وهو تعريف تقليدى قديم كان مقبولا لدى الاغريق حين كانت الجغرافيا فى نظرهم هى العلم الوحيد الذى يصف الارض وابعادها ، كما كان يصورها كل من « بطليموس » و « هيرودوت » وغيرها وقد ميز بطليموس فى كتاباته بين ثلاثة فروع من الدراسات الجغرافية . دراسة الاقاليم الصغيرة ثم دراسة الارض واخيرا دراسة الكون كله . الكوزموجرافيا Cosmogeography وبهذا انتقل من الخاص الى العام ومن الادق الى الاشمل ، ومن الاقاليم الصغرى الى الكون كله الذى يشمل الارض وغيرها من الكواكب ، كما يشمل الشمس والنجوم .

وقد عرف العرب المسلمون الجغرافيا تعريفا قريبا من تعريف الإغريق اذ اعتبروها « علم تقويم البلدان » وقد كان الرحالة العرب امثال المقدسى « وابن جبير » « وابن بطوطة » وابن خرداذبة وأبو الريحان البيرونى » وياقوت الحموى » وغيرهم يصفون كل مايشاهدونه فى رحلاتهم وتجوالهم فى البلدان المختلفة التى يجوبونها بحثا عن العلم والمعرفة ، وكانت تتصل فى جوهرها بشئون الاسلامية ، وقد حملت كتبهم اسماء اقليمية مثل كتاب « البلدان » للهمزانى » و « المسالك والممالك » لابن خرداذبة و « احسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم « للمقدسى » و « صورة الارض » لابن حوقل و « مدرج الذهب » للسعودى و « معجم البلدان » لياقوت .

والملاحظ ان اهتمام العرب كان أقرب مايكون الى الجغرافيا الاقليمية والتقسيم الاقليمى ، ولهذا فان كلمة اقليم . ليست الا تعريفا لكلمة Climat الاغريقية وقد انتقلت الكلمة الى اللغات الاوروبية لتكون لها دلالتها الكبرى فى التقسيم الاقليمى وهو المناخ .

وعلى ايه حال فانه حين انفصلت العلوم التجريبية عن الفلسفة موضوعا ومنهجيا فى بداية العصر الحديث لم تصبح الجغرافيا هى ذلك العلم الوحيد الذى يصف الارض او يهتم بدراسة الاقاليم او المناخ وحدهما وانما اشترك مع الجغرافيا فى هذا الهدف علم اخرى كعلوم الجيولوجيا و « التربة » و « النبات » والحيوان » مما دعا الى ضرورة اعادة تعريف علم الجغرافيا من جديد[1] تعريفا جديا بحيث يكون جامعا مانعا وهو امر عسير وليس سهل المنال اذا اختلف الجغرافيون فى تعريفهم للجغرافيا الى حد بعيد ، ومن أشهر هذه التعاريف التعريف الذى قدمه هارتسهورن . R. Hartshorne بقوله « ان الجغرافيا تهتم بمدنا بوصف دقيق منظم ومعقول وتفسير للخصائص المتغيرة من سطح الارض » وهو تعريف قريب مما ردده الجغرافى الالمانى هتنز Hettner فى أن اهم مايميز الجغرافيا منذ القدم إنها ذلك العلم الذى يدرس مناطق الارض من زاوية اختلافها بعضها عن بعض ، ومن هذا المنطلق كان تركيز علماء الجغرافيا على امرين هامين :

اولهما : التركيز على اهمية الجانب المكانى . وثانيهما : ابراز اهمية اختلاف مناطق الارض عن بعضها البعض Areal Differentiation ، وهذا هو الذى دعا الجغرافى المعاصر جون جتمان Gottmann لان يقول بان الارض لو كانت مستوية السطح تماما دون ارتفاع او انخفاض وانها مستديرة تماما ككرة « البليارد » لكان من الجائز اختفاء علم الجغرافيا من بين سائر العلوم ، ذلك لان الأرض ليست مستوية السطح من ناحية ، ولا هى كاملة الاستدارة من ناحية اخرى مما دعا الجغرافيين للدراسة العلمية المنهجية القائمة على وصف الارض من هذه الزاوية .

---

(١) محمد على الغرا . مناهج البحث فى الجغرافيا بالوسائل الكمية . وكالة المطبوعات . الكويت ١٩٧٥ ص ٣٠ وما بعدها .

ولهذا فان العالم الجغرافى الفرنسى فيدال دى لابلاشى Vidal La Blache يرى أن الجغرافيا هى عالم الاماكن وانها تختص بدراسة صفات وموارد الامطار ، ويردد نفس الفكرة العالم الجغرافى شولى Cholley حين يقول « ان هدف الجغرافيا هو معرفة الارض من حيث خصائصها دون البحث والتعرض للعناصر المكونة لهذه الخصائص منفردة . ان الجغرافيا لايدرس العنصر الطبيعى او الحيوى او البشرى كل على حده وانما يدرس كل هذه العناصر مجتمعة ويربط بينها ، لان مثل هذا الربط هو المسئول عن وجود المظاهر الطبيعية والبشرية المختلفة التى يكشفها لنا سطح الارض »[1] .

وهناك من العلماء الجغرافيين من اهتم بابراز العلاقة بين الانسان والبيئة فمدرسة « السيوسيوجرافيا » Sociography اى « الجغرافيا الاجتماعية » التى يتزعمها فريدرك راتزل F.Ratxel والذى أنشأ علم جغرافية الانسان Anthropogeography ودعائم « الجغرافيا السياسية Political Geography تذهب هذه المدرسة الى أن الظواهر الاجتماعية المختلفة وليدة البيئة وظروفها الطبيعية وان البيئة هى العامل الفعال الذى يقرر بقاء النوع وتطوره ويتحمس راتزل لنظرية البيئة تلك الى حد يقرر فيه أن الانسان ليس سوى قطعة من الارض التى يعيش عليها وان الاختلاف بين الشعوب فى ثقافاتها وابنيتها الاجتماعية ومستويات تفكيرها يرجع الى ظروف البيئة وما تخضع له من مؤثرات جغرافية ، وقد عبر بعض انصار هذه المدرسو هذا المبدأ بالمعادلة التالية البيئة = الثقافة اى أن البيئة الجغرافية هى العامل الوحيد فى اختلاف الثقافات وتنوع ضروبها ، وقد خصص ستوراد J.Stezard فرعا خاصا من فروع الانثروبولوجيا الثقافية يسمى . الايكولوجيا الثقافية Cultural Ecology لدراسة مدى تأثير العوامل الجغرافية على الانماط الثقافية ، وغالى بعض الجغرافيين فى ذلك الاتجاه غلوا كبيرا حين ادعوا بان العوامل الجغرافية لايمتد تأثيرها لانماط ثقافية محدده فحسب وانما يشمل كذلك

---

(١) المرجع السابق ص ٣١ :

Steward, J.Theory of Culture Change. U.S.A.1957 p.3

تشكيل الملامح الفيزيقية للبشر مثل فورد D. C. Forde وهاولى A.H.Hawley حيث يرى الاخير أن البيئة الجغرافية لاتسمح بامكان ظهور ثقافة معينة فحسب بل انها تفرض ذلك الى حد بعيد ، ومع تسليم الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع باهمية العوامل البيئية فى ثقافة المجتمع وبنائه الاجتماعى الا انهم يرفضون رفضا باتا الحتمية الجغرافية كاساس للعوامل الثقافية والاجتماعية اذ لايمكن ان نفسر اتباع مجتمع ما للنظام الامى فى التسلسل القرابى بينما يتبع مجتمع اخر النظام الابوى للعوامل الجغرافية التى تتشابه فى المجتمعين ، كما لايمكن ان نعلل امتناع الصينيين عن شرب اللبن او الهنود عن اكل لحم البقر الى نفس البيئة الجغرافية ورغم ان الهند تشكل بيئة جغرافية واحدة الا انها مسرح لعديد من العادات والقيم والتقاليد والمعايير الثقافية المختلفة ، وبالمثل لايمكن ان نرجع امتناع المسلمين عن اكل لحم الخنزير الى العامل الجغرافى فسبب ذلك مستمد من الشريعة الاسلامية كما هو معروف ، وعليه فان هناك عوامل عديدة بجانب العامل البيئى تلعب دورها فى تشكيل الانماط الثقافية كالدين والقيم ونظم القرابة والسياسة والاقتصاد وغيرها من العوامل .

وإذا ركز بعض الجغرافيين فى تعريف الجغرافيا على العلاقة بين البيئة والانسان فان لجنة المصطلحات المنبثقة عن الجغرافيين البريطانيين تعرف الجغرافيا بانها « العلم الذى يصف سطح الارض مع الاشارة بوجه خاص الى الاختلافات والصلات بين الاقاليم وبينما يعرف قاموس الكلية الامريكية » The A;erican College Dictionary الجغرافيا بانها « دراسة الاختلافات والعلاقات المتبادلة بين الامكنة على سطح الأرض من حيث عدة عناصر مثل المناخ ومظاهر السطح والتربة والزراعة واستخدام الاراضى والصناعات والوحدات المكونة لتلك العناصر الفردية » .

وعلى ايه حال فاذا كانت التعريفات السابقة تركز على اهمية التنوع والاختلاف فى مناطق العالم واقاليمه العديدة فانها تهمل ما بين هذه الاقاليم والمناطق الجغرافية من أوجه شبه وتكامل مما جعل بعض الجغرافيين المعاصرين يجمعون فى تعريفهم

للجغرافيا بين التنوع والاختلاف من جهة وبين التكامل والترابط من جهه اخرى Areal Differentiation and integration والملاحظ انه مهما كانت الاختلافات السابقة فى تعريف الجغرافيا فان هناك اتفاقا بينهما فى أن الجغرافيا هى العلم الذى يدرس الارض باعتبارها وطنا للانسان ، وانها هى علم المكان كما أن التاريخ — مهما اختلفت مفاهيمه — فهو علم الزمان .

تعريف المسلمين العرب للجغرافيا .

لقد وجه الاسلام المؤمنين للنظر بابصارهم ومشاعرهم نحو كل موجودات الكون للوقوف على عظمته سبحانه وتعالى من خلال ملكوته ، كما وجههم الى التعاطف مع كل سلالات البشر « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء »[1]« ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين »[3] ولهذا فقد صاغ التوجيه الاسلامى عقول المسلمين ، وفتح ابصارهم وبصائرهم نحو تدبر مظاهر الكون ، بل وشغل انفسهم بالنفاذ الى اغواره .

وكان من هؤلاء من تخصص فى بحث « البلدان » وموضع الارض بالنسبة للافلاك والكواكب[1] كما ان الجغرافيين المسلمين استفادوا من توجيه القرآن للنظر فى الكون وتبصره ودراسته من ناحية ، مع عنايتهم بالرحلات وتسجيل مشاهداتهم الشخصية فضلا عن نقل روايات اهل البلاد التى زاروها وطوفوا بها من ناحية اخرى .

---

(1) Heggett, P. Locational Analysis in Human Geography. Edward Arnold, London 1069 p. 3

(٢) سورة النساء الاية (١) .

(٣) سورة الروم اللاية (٢٢) .

(١) راجع : محمد فتحى عثمان فى تقديمه لكتاب البلدان الاسلامية والاقليات المسامة فى العالم المعاصر مطبوعات المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود الاسمية الرياض ١٣٩٩/١٩٧٩ ص ٧ — ص ٥٤ .

ولابن خلدون فى مقدمته الشهيرة تلخيص لعلم الجغرافيا يتحدث فيه عن خطوط العرض واثر البعد عن مسافة الشمس فى المناخ ، كما يتحدث عن التقسيم الاقليمى للارض مفصلا القول فى خصائص كل اقليم ، ولهذا يمكن القول بأن الجغرافيين الاغريق، والعرب كانوا اول مؤسسى علم الجغرافيا الاقليمية على اساس مناخى صرف ولابن خلدون فى مقدمته عديد من القضايا الجغرافية المتعلقة بالمناخ واثره فى عادات افراد البشر واوضاع المدن وما يجب ان يراعى فى بنائها وهو « طيب الهواء للسلامة من الامراض ، فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا او مجاورا للمياة الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة اسرع اليها العفن من مجاورتها ، فاسرع المرض للحيوان الكائن فيه لامحالة » ويفضل ابن خلدون فى البلاد الساحلية التى على البحر ان تكون على جبل حتى تكون فى مأمن من غارات العدو .

وعن اثر المناخ فى التكوين والعمران يقول ابن خلدون فى المقدمة الثانية من الكتاب الاول « وافراط الحر يفعل فى الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين ، لانه اذا افرط الحر جفت المياة والرطوبات وفسد التكوين فى المعدن والحيوان والنبات ، اذ التكوين لايكون الا بالرطوبة ، ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرءوس فى عرض خمس وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامته فيصير الحر الى الاعتدال او يميل عنه ميلا قليلا ، فيكون التكوين ، ويتزاد على التدرج الى أن يفرط البرد فى شدته لقلة الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد ، الا ان فساد التكوين من جهة شدة الحر اعظم منه من جهة شدة البرد ، لان الحر اسرع تأثيرا فى التجفيف من تأثير البرد فى الجسد ، فلذلك كان العمران فى الاقليم الاول والثانى قليلا ، وفى الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء ، وفى السادس والسابع كثير النقصان الحر » .

ويفسر هذا النص الخلدونى كثرة العمران وازدياد السكان وقلته انما ينشأ تبعا لدرجة الحرارة فى الاقاليم المختلفة من سطح الارض[1] .

وقد اعجب ابن حوقل اعجابا كثيرا بكتاب « المسالك والممالك » لابى اسحق الفارسى المعروف بالاصطخرى فكتبه من جديد ونسبه الى نفسه ، وقدمه بقوله « هذا كتاب المسالك والممالك ، والمفاوز والمهالك ، وذكر الاقاليم والبلدان ، على مر الدهور والازمان ، وطبائع اهلها ، وخواص البلاد فى نفسها ، وذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلاتها ، وذكر الانهار الكبار واتصالها بشطوط البحار ، وما على سواحل البحار من المدن والامطار ، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة »[2] .

كما كتب المقدسى حوالى ٣٧٥هـ (٩٨٥م) كتابه « احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » .

حيث تحدث عن الجغرافيا بقوله « فرأيت ان اقصد علما قد تغفلوه وانفرد بفن لم يذكروه الاعلى الاخلال ، وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والانهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها السلوكة وطرقها المستعملة وعناصر العقاقير والالات ومعادن الحمل والتجارة واختلاف اهل البلدان فى كلامهم وأصواتهم والسنتهم والوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم واوزانهم ونقودهم وصروفهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياهم ومعرفة مفاخرهم وعيونهم وما يحمل من عندهم واليهم وذكر مواضع الاخطار فى المغازات وعدد المنازل فى المسافات وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال .. الخ » .

(١) السيد محمد بدوى . المورفولوجيا الاجتماعية واصولها المنهجية عند ابن خلدون بحث ضمن اعمال مهرجان ابن خلدون المنعقد بالقاهرة من ٢ الى ٦ يناير سنة ١٩٦٢ . المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية القاهرة ١٩٦٢ ص ص ١٧٧ — ٢٠٢ .

(٢) صورة الارض لابن حوقل . الطبعة الثانية منشورات دار مكتبة الحياة « بيروت» بدون تاريخ لتفصيل ذلك : راجع : زكى محمد اسماعيل ، ملامح الدراسات الانثروبولوجية فى تراث المفكرين المسلمين . مجلة كلية العلوم الاجتماعية الرياض ١٣٩٧هـ ص ٣٢٢ ومابعدها .

وهكذا تفتحت ابصار علماء المسلمين وعقولهم على تدبر ظواهر الكون عملا بتوجيه القرآن الكريم » قل سيروا فى الارض » « ومن آياته خلق السموات والارض ومابث فيهما من دابة » .

« يامعشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا لاتنفذون الا بسلطان »[٢] .

(١) الشورى ٢٩ .

(٢) الرحمن ٣٣ .

علم النفس والسلوك الإنسانى

لعل أقرب العلوم الانسانية إلى تفسير السلوك البشرى والاهتمام به والتوفر على معرفته وإدراك كنهه وقياس ظواهره هو علم النفس وليس ذلك كذلك الا لأنه ـــ بمفهومه الحديث ـــ علم السلوك . ولكن هذا المفهوم المعاصر سبقته مفاهيم عديدة تختلف تماما عنه فى جوهرها . ولهذا فإن لعلم النفس تعاريف عديدة تنوعت بتنوع المراحل التى مر بها الفكر البشرى ذاته ، إذ بدأ علم النفس كغيره من العلوم جزءا من الفلسفة التى كانت تعد أهم العلوم جميعها حتى مطلع العصر الحديث ، حيث كانت هذه العلوم تدرس ضمن خليط من التخمينات والتأويلات والفرضيات طبقا لمفهوم الفلاسفة عن طبيعة الوجود والحياة والانسان والمعرفة وما بعد الطبيعية والقيم . الخ وقد ذكر فلاسفة الإغريق أن علم النفس أو النفس علم يبحث عن الروح وكان أول كتاب تعرض لدراسته النفس دراسة منهجية منظمة هو كتاب أراسطو عن الروح De Anime ، ولكا كان الفكر الإنسانى ظل مرتبطا بآراء أرسطو قرونا عديدة حتى فجر النهضة العلمية الحديثة فإن تناول النفس لدى هؤلاء ظل مرتبط بالروح وحقيقة كنهها وظائفها وبداياتها ونهايتها وهو حديث « ميتافيزيقى » بعيد عن واقع السلوك الانسانى وارتباطه بالبيئة ، وقد انقسم الفلاسفة إلى قسمين بعضهم يحدث عن النفس على أنها الروح ،

الآخرون انصرفوا إلى العقل وعرفوا علم النفس بأنه علم العقل ، وأفاض بعض فلاسفة المسلمين فى ذلك من أمثال ابن سينا وابن رشد والكندى والغزالى حيث أفاضوا فى تعريف النفس وأقسامها ودراسة سلوكها وبواعثها ومقاصدها مما جعلهم يقدمون درسات تحليلية تقويمية توجيهية لها أثرها فى تطور هذا العلم .

وفى القرن السابع عشر الميلادى قرر الفيلسوف الفرنسى الشهير رينيه ديكارت Rene Descartes أن العقل يستقل به الانسان دون الحيوان وأن وظيفته هى الشعور والإدراك الأمر الذى جعل عديدا من العلماء منذ هذا التاريخ يتناولون علم النفس على أنه علم لإدراك والشعور . وفى القرن العشرين رأى عالم النفس واطسن J. E. Watson أن الشعور مفهوم غامض يصعب إخضاعه للدراسة العلمية المنهجية ولهذا فإن على علم النفس أن يدرس السلوك الخارجى للإنسان فى دوافعه ومظاهره وأهدافه[١] .

وقد أشار إلى هذا التطور التاريخى وودورث Wood Worth حين تعرض لموضوع علم النفس العام على أنه علم . زهقت روحه أولا ثم فقد عقل وزال شعوره ولم يبق فيه اليوم الا سلوك ظاهرى للإنسان »[٢] .

إذن علم النفس الذى يدرس من حيث هى جوهر أو روح أو عقل كما سبق أن استعرضنا من آراء الفلاسفة والمفكرين وإنما هو العلم الذى يدرس السلوك والشعور والميول والنشاط العقلى والعاطفى للإنسان أى أنه العلم الذى يدرس السلوك البشرى سواء كام سلوكا انفعاليا يتمثل فى السرور والألم والغضب والفرح أو سلوكا عقليا يتمثل فى الإدراك والتذكر والنسيان والتصور والتخيل والتعلم والذكاء وعلم النفس — كأى علم — يهدف إلى الوصول إلى الحقائق أو النتائج العامة التى تفسر السلوك الإنسانى تفسيرا علميا ، ولكن علم النفس لايقف عن هذا الحد النظرى ، وإنما يسعى العلماء إلى الاستفادة من النتائج التى يصل إليها فى الميدان التطبيقى سواء كان ذلك فى حقل التربية والتعليم أم الاقتصاد أو الحرب أم الفضاء أم الطب أم الصناعة .

---

(١) لتفصيل ذلك يراجع . فرنسيس إيفلنج : علم النفس قديما وحديثا ترجمة محمد عماد الدين إسماعيل وعطية محمود مهنا ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٩ .

(٢) عبد الحميد محمد الهاشمى : علم النفس التكوينى . أسسه وتطبيقه . الطبعة الثالثة مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٦ ص ١٢

أهم فروع علم النفس العام

تعددت فروع علم النفس النظرية والتطبيقية وإن كان أهمها :

علم النفس التكوينى **Development paychology**

ويبحث هذا الفرع فى سلوك الإنسان باعتباره كائنا حيا ناميا ، يتطور فى سلم حياته التصاعدية بدءا بولادته وانتها بشيخوخته ووفاته ، وفيما بين ذلك يبحث هذا الفرع فى مراحل حياته الانسان المختلفة فى الطفولة والصبا والمراهقة والشباب والرجولة والكهولة من حيث خصائص كل مرحلة وما تتسم به من مظاهر سلوكية خاصة ، ورغم حداثة هذا الفرع فإنه يزود فروع علم النفس الأخرى بحقائق نفسية يستفاد منها فى شتى الميادين التطبيقية لعلم النفس فى الحياة .

علم النفس التربوى Educatuinal psychology .

ويتناول هذا الفرع دراسة سلوك الانسان من حيث استعداده للتعليم ومدى ماوهب من قدرات إدراكية عامة تقيد فى مجال التعليم وانتقال الخبرة واتساع التجربة وتوظيف هذه العمليات فى مجالات التربية والتعليم والتدريس والتعلم وما يتصل بذلك من أسس نفسية تفيد كلا من المربى والمدرس والطالب .

٣ ـــ علم النفس الاجتماعى Social psy .

وهذا الفرع من علم النفس بعد همزة الوصل بين علم النفس الفردى وعلم الاجتماع فهو يختص بدراسة القضايا الاجتماعية من زواياها السلوكية المتبادلة بين الفرد والجماعة ويقسم علماء النفس هذا الفرع الى قسمين .

ا ـــ **علم النفس الاجتماعى الفردى** . ويختص بدراسة أثار المجتمعات والنظم الاجتماعية والثقاية من لغة ودين وعبادات وقوانين وأثرها فى تشكيل سلوك الفرد وتكوينه كما يدرس الزعامة وخصائصها وأنواعها والاشاعة والدعاية وغيرها من الأمور التى يتضح أثرها فى التأثر والتأثير المتبادلين بين الفرد والجماعة .

ب ــ **علم النفس الاجتماعى الجمعى** : ويدرس هذا القسم الخصائص السلوكية العامة التى تتصف بها لشعوب والجماعات من حيث شخصيتها وأنواعها وخصائصها النفسية والجماهير والرأى العام فى السلم والحرب ، والمصائب والكوارث وآثارها والرأى العام . والخلق القومى واتجاهات الجماعة .

٤ ــ علم النفس الإكلينيكى . Clinical psy .

لما كانت حياتنا المعاصرة تتسم بالعلاقات الاجتماعية المتشابكة والمعقدة وماتحدثه من صراعات واضطرابات عديدة لكثير من البشر فإن هذا الفرع من علم النفس يختص بدراسة الأمراض النفسية والعقلية من حيث أسبابها وظواهرها وأخطارها وطرق الوقاية والعلاج منها كالعصاب والهستريا والبارانويا وغيرها ، فقد أكد العالمان الأمريكان الدكتور جاكسون والدكتور دوجلاس توم فى المجلة الطبية الأمريكية أن ثلثى المرضى المترددين على المستشفيات والأطباء فى الولايات المتحدة الامريكية لايعانون مرضا عضويا وإنما يعانون من أمراض نفسية واضطرابات عاطفية ، وأن كثيرا من هذه الأمراض قد تزول بعد الطب وقد يدوم أثرها النفسى طويلا ، وقد لاتزول إذا لم يتوافر لها العلاج الطبى النفسى فى الوقت المناسب[1] . وعلى أيه حال فإن « علم الصحة النفسية » يطرح عديدا من أساليب الوقاية من الأمراض النفسية .ويركز على اتباع الأساليب التى تؤدى إلى الأمان النفسى والذى يعد حاليا من أهم السبل التى يسعى اليها الإنسان فى عالمنا المضطرب المتصارع ولاشك أن الوقاية خير ألف مرة من العلاج .

٥ ــ علم النفس الصناعى Industryal psy .

لعل أهم مايميز العالم المتقدم فى عصرنا الراهن أنه عالم صناعى ، فالصناعة الأنتاجية والاستهلاكية هى عصب التقدم وسبيل التطور فى الوقت الحاضر ولكن الصناعة لاتقوم إلا عى جهود البشر الجسمية والفكرية ، ولايمكن أن يكون الانتاج محققا غايته إلا من خلال المنتجين أنفسهم أى العاملين فى الصناعات على اختلاف أنواعها وأنماطها .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥

لهذا فإن هذا الفرع من علم النفس يختص بدراسته سلوكيات المهن المختلفة والتى تعتمد على احصائيات تحليلية واسعة للصناعات والمصانع والعاملين فيها ، وذلك عن طريق تحليل كافة الصناعات الحديثة ودراسة مايلائمها من المواهب والقدرات والكفايات والمستويات النفسية إلى جانب دراسة المظاهر الانفعالية وما قد يلاقيه عمال كل صناعة من مشكلات ، لوضع الحلول للتغلب ، عليها كما أن هذا الفرع يهتم بوضع الاختبارات الفنية النفسية بغيه اكتشاف مايناسب كل مهنة أو صناعة على حدة ، كما يساعد فى وضع المناهج النفسية للتأهيل المهنى . مع تصنيف عام للمهن الكبرى وما يناسبها من كفايات وقدرات الأفراد الفعلية وصولا إلى وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب .

٦ ــ علم النفس الجنائى Criminal psy

اقتحم علم النفس حديثا ميدان الجريمة من حيث دراسته لنفسية المتهم والجانى وبحثه من العوامل النفسية التى تمهد السبيل أمام الجانى لارتكابه الجرم ، كما يبحث هذا الفرع فى اكتشاف العلاقة بين نسبة الاجرام وتأخر النمو العقلى لدى الفرد أو بين تلك النسبة والعامل الاقتصادى أو الاجتماعى ، مع دراسته للسمات النفسية والعقلية لكل جانح ومدى مسئوليته الجنائية ، وكذلك دراسه التحقيق الجنائى فى ضوء علم النفس لتحليل الدليل وبيان مدى قوته النفسية واقتناع القضاء به ، الأمر الذى جعل علم النفس يدخل ساحات المحاكم ويسهم بدور فعال فى دراسة المتهم وفى مرافعات الدفاع والاتهام .

تلك بعض فروع علم النفس العام والتطبيقى ، وهناك العديد من الفروع الأخرى التى تعالج نظريا وتطبيقيا مختلف الأنشطة السلوكية للجماعات والمجتمعات طبقا لنوعيتها ونوعية أنشطتها الوظيفية ، فهناك علم النفس التجارى وعلم النفس الإعلامى وعلم النفس الشواذ وعلم النفس الحيوانى وعلم النفس الفسيولوجى وعلم النفس التجريبى

علم النفس والسلوك .

فى الواقع أن أى نشاط سلوكى يقوم به الانسان ينقسم الى قسمين : —

سلوك فطرى وسلوك ثانوى أو اجتماعى

النوع الأول يقوم به الانسان دون تدريب أو مران كالطفل حين يرغب فى قضاء حاجته ، ويشبع دافع الجوع أو يلجأ الى النوم للراحة ، أو يثيره حب الاستطلاع فى فحص آلة أمامه فحصا عشوائيا ، كل هذا النوع من السلوك فطرى يقوم به الانسان دون حاجة ما إلى أن يدفعه داقع خارجى .

أما السلوك المكتسب أو الاجتماعى فيعتمد أساسا على التعلم من الغير بطرق التعلم العديدة أسرية كانت أو مجتمعية ، مدرسية أو إعلامية ومن الأهمية الإشارة إلى أن السلوك المتعلم يتركز خاصة فى المجتمعات المتطورة — حول تهذيب وتعديل وإعلان السلوك الفطرى . فالطفل لابد أن يتناول طعامه لاشباع دافع الجوع ، ولكن هناك فرق كبير بين طفل يعيش فى مجتمع تقليدى أو شبه بدائى وآخر يعيش فى مجتمع متطور من حيث أسلوب تناول الطعام أو قضاء الحاجة أو اتباع أسلوب النظافة وهنا يظهر أسلوب السلوك المتعلم ، وأثر عملية التعلم Learning ذاتها فى توجيه سلوك الانسان .

لهذا يعرف العلم بأنه التغير الدائم نسبيا فى السلوك الذى يحدث نتيجة للمران والتجربة أو الخبرة .

وهذا يعنى أن تعرض الفرد لخبرات أو تجارب جديدة من شأنه أن يؤدى إلى أحداث تغييرات فى سلوكه ارتكازا على نتائج هذه الخبرة ، وهذه التغييرات قد تكون إلى الأحسن أو إلى الأسواء طبقا لنوعية التعلم وهدفه وطريقته وقديما قال الشاعر .

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ماكان عودة أبوه

وفى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه » .

ولهذا ينظر علماء النفس إلى التعلم باعتباره عاملا وسيطا يصل السلوك بالتجربة وذلك بعديد من الطرق والأساليب كتكرار أداء العمل أو القيام بنفس النشاط والعمل ذاته أو عن طريق المران والممارسة أو التدريب والملاحظة ويعني هذا ان قيام الفرد بتكرار أداء العمل أو القيام بنشاط جديد أو الممارسة عملية معينة والتدريب عليها كل هذا يؤدى إلى تغيير فى نمط السلوك الانسانى أو تغيير فى اتجاهه أو تعديله[1] .

ومن الاهمية الاشارة الى أن التعلم لايشمل التغيير فى السلوك الناشىء نتيجة نمو الانسان وتطوره فى مراحل العمر المختلفة . فمثلا ظهور التغير الفسيولوجى نتيجة انتقال الفتى أو الفتاة من مرحلة الصبا الى مرحلة المراهقة أو النضج الجنسى وما يصاحب ذلك من تغيرات عديدة فى وظائف الأعضاء لايكون نتيجة تعلم أو تدريب أو مران إلا إذا صاحب تلك الزيادة الفسيولوجية خبرات جديدة أدت إلى تغيير أنماط السلوك كتدريب المراهق على كيفية إتفاق طاقته الحيوية فيما يؤدى إلى إفادته جسميا وعقليا واجتماعية .

أهم مميزات السلوك .

فى الواقع أن السلوك كخاصية من خصائص الانسان يتميز بما يلى :

١ ــ الهدف المعين فلكل سلوك هدفه الخاص به إذا كان سلوكا سويا ورشيدا ، وهذا الهدف إما أن يكون لتحقيق فائدة أو تلاشى ضرر ما ، وقد يتكون الأهداف التى يوجه إليها السلوك . معروفة للإنسان أو مجهولة لديه عندما يكون الهدف مستقرا فى عقل الانسان الباطن .

٢ ــ لكل سلوك سبب ، والسبب عبارة عن تفاعل بين المحرك والمؤثر وبين تفسير الفرد لهذه المحركات والمؤثرات فحين ينهمك الطالب فى استذكار دروسه

(١) على السلمى . مقدمة فى العلوم السلوكية . دار المعارف . القاهرة ١٩٧١ ص ٢١٢

قبل الامتحان بأيام قلائل فإن هذا السلوك ناشيء عن رغبة فى اجتياز الامتحان بنجاح هذه الرغبة هى المحرك والمؤثر التى تتفاعل مع الطالب الذى يحيليها إلى تفسير عملى بالاستذكار والاجتهاد ، ولكن هذا السلوك لايتم إلا من خلال عوامل عديدة تتصل بالتركيب الجسمانى والخصائص الشخصية والثقافية . فالطالب المريض رغم أنه يدرك أهمية النجاح وضرورة الاستذكار إلا أن علته الجسمية قد تقف عائقا فى سبيل مواصلة استذكاره مما يجعل يؤجل الامتحان ، وقد يكون الطالب مهملا فلا يكثر بالاستذكار وقد تكون ظروفه الاجتماعية تضطره لعدم دخول الامتحان وهكذا .

٣ ــ لكل سلوك دافع معين يحرك الانسان للقيام به وهناك اختلاف طفيف بين الدافع والسبب . فالسبب غالبا مايكون اجتماعيا ينشأ من المحيط الاجتماعى الذى يعيش فيه الانسان بينما الدافع يتركز فى الحاجة والرغبة الكامنة فى الانسان كثرة حقيقية محركة له للقيام بسلوك خاص فى البحث عنه ، فكذلك الرغبة والحاجة الجنسية تعتبر دافعا فطريا كامنا يحركه للبحث عن الزواج وتكوين الأسرة وعن هذا الدافع الكامن ينشأ السبب الذى يتركز فى الربط بين هذا الدافع الكامن وبين تفسير الشخص له وكيفية إشباعه .

لهذا يمكن القول بأن الدافع أو المحرك أو المثير هو الأصل فى الانسان يليه السبب الذى يتركز فى الربط بينه وبين تفسيره لدى الشخص يليه تحقيق الهدف عن طريق مزاولة السلوك نفسه ، كحاجة الأنسان إلى ماء لإطفاء الظمأ فى يوم شديد الحرارة يعد دافعا . والربط بين هذا الاحساس بالظمأ وبين مصدر الماء ومكان الحصول عليه ونوعية وكميته يعد سببا للبحث عنه والقيام بعملية الشرب ذاتها فى مزاولة هذا السلوك هو تحقيق للهدف الذى يسعى إليه الانسان ، واذا كان الدافع عاما لدى الانسان فإن تحقيق الهدف يختلف أسلوبه من إنسان إلى آخر طبقا لظروف الانسان الاجتماعية والثقافية والبيئية .

السلوك الانسانى فى القرآن الكريم :

خلق الله تعالى وصوره فى أحسن صورة وكرمه حين زوده بالعقل والضمير وحيث فضله على كثير ممن خلق جل وعلا « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » وبالعقل يتدبر الانسان تنفيذ ماتنادى به الغرائز ، وبالضمير يوجه الانسان نزوعه أو سلوكه نحو عمل صالح يفيد الانسان ومجتمعه فائدة حقيقية جديرة بانسانيته .

والضمير هو مايسمى فى القرآن الكريم بالقلب أو الفؤاد ، وبه متعاونا مع العقل يكون تلبية الغرائز الانسانية أو الدوافع الفطرية بالتى هى أحسن ، وبالضمير اليقظ الحى يهدى الله تعالى الانسان إلى نور الحق فيميز بين الخير والشر وبين الحق والباطل ويجنح الى التى هى أحسن ، ومن تحكم ضميره فى فكره وقوله وعمله أوتى الحسنى وكان مركزا إشعاع للخير قال تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » الشمس ٧ ـــ ١٠ .

وبدون الضمير الحى اليقظ يصبح الانسان كريشة فى مهب الرياح تسيطر عليه غرائز بدل أن يكون هو المسيطر عليها القابض بزمامها الموجه لها ، ورغم مايبذله العقل من محاولات فى كبح جماح الغرائز وتوجيهها الوجهة الصالحة إلا أنه قد ينجح حينا وقد يفشل أحيانا أمام إلحاح تلك الدوافع لدرجة أن تسيطر عليه هى فيصبح أداة لها لا مسيطر عليها[1] فيسلك سلوكا شاذ الا يرضاه الله ولا المجتمع ، وهنا تكون الحرب بين الشيطان وبين ضمير الانسان . بيد أنه بقدر صفاء الضمير ونقائه واستجابته لأوامر ربه بقدر ماتكون له الغلبة على نوازع النفس وتوجيهها الوجهة الصالحة لا عن طريق كبتها أو القضاء عليها ، وإنما عن طريق توظيفها فيما خلقه الله جل وعلا لها ، فالاسلام لايدعو إلى كبت الشهوات أو القضاء على غرائز الجنس مثلا وإنما يدعو إلى إعلائها بالزواج وتكوين الأسرة

(١) محمد هانى سليم ـــ القرآن الكريم والسلوك الانسانى ـــ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٧ ص ٢٥

الصالحة بل يجعل فى توظيفها وتوجيهها الوجهة المشروعة صدقة يثاب عليها الانسان فقد قال عليه الصلاة والسلام « وفى بضع أحدكم صدقة » ولما سأل الصحابة الرسول عن كيفية ذلك والانسان يقضى شهوته محققا نداء غريز به أجابهم عليه الصلاة والسلام بتساؤل هو غاية البلاغة « أرأيتم لو وضعها فى حرام أما كان عليه وزر » .

وعليه فإن الإسلام يدعو إلى أن يكون السلوك الإنسانى محققا لما أودع الله تعالى فى الإنسان من غرائز ودوافع فطرية بالطرق المشروعة غير الممنوعة ، ولهذا حرم الرهبانية والبعد عن ماأحل الله من متع الحياة وزينتها « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

لقد بصرا القرآن الكريم الإنسان بطريق الخير وحببه إليه ، كما أوضح له طريق الضلال وسبل الشيطان وضررة منه « وهديناه النجدين » كما أن القرآن الكريم بصر الإنسان بما هيت السلوك القويم الذى ينبغى على الإنسان اتباعه « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » (الاسراء ٩) وعليه فإن نتائج السلوك الشخصى ومظاهره بالنسبة للمؤمنين تتجلى فى أمور عديدة أهمها أداء المؤمن حق الله تعالى عليه فى عبادته وتتجلى تلك فى الفرائض الخمس والتى ينبغى على كل مسلم الأخذ بها والمثابرة عليها وتعميق الإيمان من خلالها وهى الشهادتان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إلى ذلك سبيلا ، وليست الفرائض غاية فى ذاتها وإنما وسيلة لتحلى صاحبها بحميد الخصال وقويم الأخلاق واستقامة السلوك ، كما أن التفاؤل والرضا بما قسم الله تعالى مظهر هام من مظاهر سلوك الزمن ، وكذلك الصبر على فوائد الدهر ومفاجآت الحياة الدنيا وهوسلوك ملائم وملازم للتفاؤل وإنعكاس له بدفع صاحبه لعدم الاهتزاز بما قد يصيبه فى هذه الحياة مرددا قوله تعالى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » والصبر أنواع فقد يكون على القير بالاكتفاء بالقليل المتاح الذى وهبه الله تعالى للإنسان من حلال ، وعلى أهواء النفس بكبح جماحها والسيطرة عليها وتوجيهها للعمل بما هو

أقوم وألزم ، وقد يكون على مايصيب البدن من أوضار وآلام وذلك بذكر الله وطلب رحمته ، وقد يكون صبرا على الجهاد فى سبيل الله تعالى لإعلاء كلمته مهما كانت الصعاب فى سبيل تدعيم الحق ونصرته « ولينصرن الله من ينصره » وعليه فإن صبرا المؤمن عمل إيجابى وكفاح سلاحه الصمود والثبات « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » البقرة ١٧٧ .

ولعل من أهم مظاهر سلوك المؤمن الصدق واليقظة للحق ، هذا الصدق ينبغى أن يكون مع الرب أولا فهو جل وعلا « يعـلـم خائنة الأعين وماتخفى الصدور » وصدق مع النفس ومع الناس فى القول والعمل وفى كل شئون الحياة ، ومن مظاهر هذا الصدق اعتدال وتوسيط فى المأكل والملبس والمشرب . كما أن من أهم مظاهر السلوك القويم الذى ينبغى أن يكون عليه المؤمن ترك الكبائر الاربع التى حرمها الله جل وعلا تحريما قاطعا وهى شرب الخمر ولعب الميسر ، وإتيانه الزنا وممارسة الربا . فتلك هى علة انهيار مجتمعاتنا المعاصرة مهما كان تقدمها التكنولوجى وتطورها الحضارى . وقد أصبحت السبب الرئيسى لتفشى الجريمة وتفكك الأسرة ، والتمزق الأمنى والاضطراب النفسى

وصدق الله العظم إذ يقول « يأيها الذين آمنو إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » المائدر ٩٠ ، وعن الزنا يقول جل وعلا « الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » النور ٣ .

وعن الربا يقول تعالى « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم » البقرة ٧٦ .

وهكذا يحدد القرآن الكريم مظاهر السلوك الإنسانى للمؤمن ليحقق الأمن له ولمجتمعه ، وليضمن له سعادة الدنيا والآخرة .

الفصل التاسع

« علم النفس » بين منهج العلوم وموقف الاسلام

من الظواهر الصحية فى الفكر المعاصر نزعته أحيانا الى مقاومة الاتجاه المادى الذى يكاد يطغى بماديته على القيم الأصيلة والمعانى النبيلة فى خضم الحضارة التكنولوجية الراهنة من ناحية ، وسباق التسلح الرهيب الماثل على الساحة الدولية يثير الرعب وينشر الفزع من ناحية أخرى ، وكرد فعل لها نشأت بعض الاتجاهات اللامادية تدعو الى سيادة القيم والمبادىء والمثل الكريمة والتمسك بأهداب الدين والعودة الى حظيرته لما فيه من الأمن والأمان معا ، وان كانت الحضارة Civilization ونقصد بها هنا الجانب المادى من الثقافة Culture[1] ـــ ليست سلبية فى كل سماتها بل ان لها جانبا ايجابيا هو العلم الذى يعد خيرا فى حد ذاته ، وان كانت توجه بعض نظرياته وقوانينه فى جانبها التطبيقى أحيانا الى الدمار لا العمار كالذرة التى استخدمت أول مااستخدمت لتدمير الانسان فى الحرب ، وهى الآن تستخدم ـــ فيما تستخدم ـــ لعلاجه ورفع مستواه الاقتصادى والاجتماعى .

وفى اطار هذه النزعة اللامادية السليمة يحلو لبعض الكتاب اتهام علم النفس ـــ لأنه من علوم العصر الحديثة ـــ بأنه « ليس بعلم على الاطلاق ، ولاينطبق على بحوثه التى قدمها فرويد S. Frued وآدلر A. Adler وغيرهما شروط العلم الواجبة ، فلا هو يقينى ولا هو موضوعى ، بل مجموعة نظريات وفروض وتخمينات اختلف فيها أصحابها وتناقضوا وكذب كل منهم الآخر ، ثم نرى الفكر المادى يبسط ظلاله على هذه العلوم النفسية المزعومة ، ويلفها فى غلالة كثيفة من

(١) الثقافة هنا بمعناها الأنثروبولوجى الذى يعبر عن الميراث الاجتماعى للانسن متضمنا عاداته وقيمه ، وأنماط سلوكه ، وكل ما اخترعه من وسائل مادية وغير مادية على امتداد التاريخ الانسانى .

العمى وضيق النظر[1] وتلك هى النظرة التى نتعرض لها بالرد فى بحثنا هذا من خلال منظورين . الأول هو « علمية » علم النفس وأهم مقوماتها وأهداف هذا العلم فى اطار الفكر المعاصر ، والمنظور الثانى هو موقف الاسلام من علم النفس .

أول : علم النفس والمنهج العلمى :

يرى علم الميثود ولوجى « علم المناهج » أن العلم ينصب على دراسة مجموعة من الظواهر والنظم التى تلتقى عند موضوع واحد أو عدة موضوعات مترابطة لبيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطورها ووظائفها والعلاقات التى تربط بين ظواهرها وظواهر العلوم الأخرى للكشف عن القوانين والنظريات التى تخضع لها تلك الظواهر وذلك لتفسير الظاهرةموضوع البحث لامكان التنبؤ والتحكم فيها ، وبهذا فان أهداف العلم تفسير وتنبؤ وتحكم ، ومعنى هذا أنه اذا كان العلم نشاطا يهدف به الانسان الى السيطرة على الطبيعة تحقيقا لأحسن تكيف لها فان التفسير والتنبؤ معا هما اللذان يؤديان الى هذه الغاية[1] .

وعلى أية حال فان العلم أيا كان موضوعه ــ يعتمد على مسلمات أساسية ثلاثة هى أن هناك نظاما معينا دقيقا أودعه الله تعالى فى الكون ، وأن لهذا النظام صفة الاطراد والتتابع والتناسق وأن معرفتنا بهذا النظام تنشأ عن طريق الملاحظة والخبرة الحسية المنهجية ، ويقول ألبرت انشتاين A.Einstein « انه بدون الاعتقاد بأن هناك انسجاما داخليا فى عالمنا هذا فانه لايمكن قيام العلم ، فهذا الاعتقاد دائما الدافع الأساسى للابداع العلمى[2] .

والعلم Science بهذا المفهوم يختلف عن الفن التطبيقى Art الذى يهدف الى

---

(١) مصطفى محمود « كلهم يعبدون العجل ، مقال أسبوعى بجريدة « اخبار اليوم » القاهرة ٣١ يولية سنة ١٩٧٦م .

(٢) محمد عماد الدين اسماعيل ، المنهج العلمى وتفسير السلوك ، النهضة المصرية . القاهرة ١٩٧٠م . ص ٣٤

(2) Eonstein, A. Enfled, I. The Evolution of Phtsics, Reference.Book U. K. 1952, p 232

الغايات العلمية ، وبهذا يختلف علم التشريح Anatomy الذى يدرس تركيب أعضاء الجسم وأجهزته ووظائفه عن فن الطب أو العلاج الذى يدرس الوسائل التى ينبغى الإلتجاء اليها لعلاج الجسم ، وهكذا فى سائر العلوم النظرية وفنونها .

ولو نظرنا الى علم النفس بمفهومه الحديث لوجدنا أن له كل مقومات العلم بمفهومه السابق من حيث انه العلم الذى يدرس سلوك الانسان فى محاولة لتفسيره وتحليله من خلال نهج علمى موضوعى للوصول الى القوانين التى تفسر هذا السلوك ، وبهذا يعتبر فرعا من فروع العلم ، وان اختلفت فروعه باختلاف منهج البحث المستخدم فى تفسير ظواهره[٣] . — هذا ، ويختلف علماء النفس فى تحديد معنى السلوك اذ يقصره بعضهم على النشاط الحركى الظاهر فى سلوك الانسان والممكن أن يشاهده أشخاص آخرون كالكلام والجرى والمشى والابتسام والعزف والقراءة ... الخ ، وبعضهم يوسع دائرة مفهوم السلوك ليشمل النشاط الباطن غير المرئى كالتفكير والتذكر والتخيل والشعور بالانفعال ، وبهذا يصبح السلوك هو كل مايصدر عن الفرد من استجابات Responses ازاء موقف ما ، وحين يتناول علم النفس دراسة السلوك بمفهومه الواسع حركيا أم انفعاليا أم عقليا ، ظاهريا أم باطنيا فمن حيث هو وحدة نفسية متكاملة وقد فطن الى هذه الحقيقة الفيلسوف اليونانى أرسطو . (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م.) والذى يقول « ليس الذى ينفعل هو النفس أو الجسم بل الانسان » وبهذا وحد بين الروح والنفس التى هى مجموع الوظائف البيولوجية للكائن الحى والى تميزه عن الجماد ، وقد انتقلت تعاليمه تلك الى فلاسفة العرب والمدرسين — وهم مفكرو العصور الوسطى من الاوربين — ثم الى ديكارت R. Descartes الفرنسى (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م .) ثم جون لوك الانجليزى (١٦٣٢ — ١٧٥٤) بيد أن علم النفس لم يبدأ فى استخدام المنهج العلمى Scientific Method إلا فى نهاية القرن التاسع عشر حين أسس فوندت Wundt علم النفس الفسيولوجى الألمانى

(۱۸۳۲ ـــ ۱۹۲۱م .) أول معمل لعلم النفس التجريبى بجامعة ليبزج بألمانيا فى سنة ۱۸۷۹م . حيث بدأ يجرى تجاربه على الحواس المختلفة والعمليات العقلية مثل كيفية التذكر وطرق التعلم وقياس سرعة الانفعال ومداه والنبض والتنفس فى أثنائه .. الخ .

وتعددت بعد ذلك مدارس علم النفس كالمدرسة السلوكية Behaviorism والتى يتزعمها واطسن Watson ، ومدرسة التحليل النفسى Paychoanalysis والتى يتزعمها فرويد S. Freid (١٨٥٦ ـــ ١٩٣٩م) ومدرسة التحليل النفسى الجديدة Neopsychoanalysis والتى تعارض « فرويد » فى اعتبار غريزتى الجنسية والعدوان كعاملين أساسيين فى تكوين الشخصية ، وتركز على أهمية العوامل الثقافية والحضارية فى تكوينها ، وكذلك مدرسة الجشطالت Gestalt Psychology « أى الصيغة الاجمالية » وغيرها من المدارس والاتجاهات العديدة .

وعلى أيه حال فان أهم مايحدد لعلم النفس الحديث علميته وموضوعيته هو منهج البحث Method الذى يستخدمه ، ويتميز بجمع الوقائع وتحليل الظواهر السلوكية عن طريق الملاحظة الموضوعية بما تتسم به من ضبط وتحقيق ووصف دقيق وتسجيل منظم للسلوك يبعد الباحث عن التأثير بميوله وعواطفه ، بالاضافة الى المنهج التجريبى Experimental Method والذى يعد أهم مناهج البحث بصفة عامة وفى علم النفس الاجتماعى بصفة خاصة[1] بعكس منهج الاستبطان الذاتى Introspective Method والذى يتصف بدرجة عالية من الذاتية ، فبالمنهج التجريبى يستطيع عالم النفس السيطرة على العوامل المختلفة التى تؤثر على الظاهرة السلوكية موضع البحث فيتغير أو يثبت فيها بما يجعله أقدر على تفهم العلاقات بينها وأثرها فى الظاهرة . وان اعترض على هذا بعض الفلاسفة لاسيما أنصار المذهب اللاطبيعى Anti- Naturalism ان يرون أنه لايمكن أن يكون المنهج التجريبى ذا جدوى فى علم النفس لأن طبيعة الموضوعات والظواهر التى

(1) Murphy Future of Social Psycholigy in historical perspective in, Klineberyg O. and christie, R. Perspective in Social Psychology. Holt. Rinehart, 1965, pp. 21- 37

يدرسها — وهى السلوك البشرى — تختلف عن تلك التى تدرسها علوم المادة بصفة عامة ، ذلك لأن السلوك الانسانى تسيطر عليه نزعة الحرية والارادة والوعى ، وتلك كلها من الأمور التى تستعصى على التجريب العلمى ، كما يصعب فى ميدان علم النفس — من وجهة نظرهم — تكرار الملاحظة والتجربة للوصول الى نفس النتائج الموضوعية التى تنتهى اليها العلوم الطبيعية حيث يتحطم الشك على صخرة التكرار والتواتر فى تلك العلوم بعكس علم النفس وهذا بدوره يؤدى الى صعوبة التنبؤ فى مجال الظاهرة النفسية التى تخضع لظروف الموقف الراهن وتتأثر بطبيعة « الزمان » و « المكان » وبالتالى تخضع للاستثناء الذى يبرأ منه القانون العلمى ، ولهذا لايمكن اختراع « ترمومتر » كمقياس لحرارة العواطف أو درجة الصدق مثلا ، ولا « بارومتر » لقياس ضغط الحب أو عمق الانفعال وهكذا ، ولكن علماء النفس التجريبيين يردون على هذه الاعتراضات بأنهم لايقومون بقياس الظاهرة النفسية ذاتها ، وانما يسجلون مايترتب عليها من الآثار الناتجة عنها أو المصاحبة لها ، ويشيرون الى النتائج العلمية الباهرة التى توصلوا اليها فى قياس مدى الآثار الفسيولوجية التى تنشأ عن الانفعال الشديد أو الغضب أو العطش أو الجوع وهكذا ، ثم أن بعض التجارب التى تجرى فى معامل علم النفس تتميز بامكان ضبط العوامل والمتغيرات التى تتصل بالظاهرة ، ولما كان التجريب المعملى يصعب اجراؤه على الانسان فى بعض الأحيان فان علماء النفس التجريبى يلجأون الى التجريب على الحيوان الذى يمكن التحكم فى ظاهرته بعكس الانسان الذى تتداخل قدراته وميوله واهتماماته .

ويرى علماء النفس التجريبيون أن قياس الآثار المترتبة على الظاهرة النفسية ليس بدعا فى علم النفس فان علماء المادة أنفسهم لايقيسون — بأجهزة قياسهم — الحرارة أو الكهرباء مثلا وانما يقيسون الآثار التى تترتب على كل منها .

ومن كل تتضح لعلم النفس « علميته » من حيث ان له موضوعه وظواهره التى تتصل بالسلوك البشرى . كما أن له منهجه العلمى المتمثل فى الملاحظة والتجربة فى محاولة للوصول الى النظرية أو القانون الذى يفسر هذه

الظواهر تفسيرا موضوعيا علميا ، كما أن له هدفه فى التفسير والتنبؤ والتحكم معا ، واذا قيل أن علم النفس ليست له نفس دقة الضبط والتحكم كما فى علوم المادة أو يقين النتائج كما فى الرياضة والمنطق فان هذا لاينقص من أهميته العلمية لأن تلك أمور تنطبق على سائر العلوم الاجتماعية ، وكلها جادة فى سبيل اصطناع المنهج العلمى والبعد عن المناهج الفلسفية التى كانت أداة البحث فى هذه العلوم حتى مطلع العصر الحديث .

واذا قيل أن علم النفس ليس علما لأنه لاينطبق على بحوثه التى قدمها « فرويد » و« آدلر » شروط العلم[1] فاننا نرد على هذا الادعاء بأن علم النفس ليس هو آراء «فرويد » و« ادلر » بل أن آراءهما لاتعدو بأن تكون فرعا من التحليل النفسى الذى يعد فرعا من فروع علم النفس المتعددة التى أصبحت تطرق سائر مجالات النشاط الانسانى بالدراسة والعرض والتحليل بالمنهج العلمى النفسى ، ومن أهم ميادينه « علم النفس العام » الذى يستهدف الكشف عن المبادىء والقوانين المفسرة لسلوك الانسان وتحديد نمط شخصيته وينقسم الى فروع متعددة منها علم النفس الحيوان وعلم النفس المقارن ... الخ . أما علم النفس التطبيقى فيهتم بالاستفادة من نظريات وقوانين علم النفس العام عند التطبيق فى مجالات النشاط الانسانى ، ومن فروعه علم النفس الصناعى الذى يستهدف رفع مستوى الكفاية الانتاجية للعامل عن طريق حل مشاكل الصناعة والانتاج حلا علميا سيكلوجيا سليما ، وعلم النفس التجارى الذى يدرس حاجات المستهلكين وتقدير اتجاهاتهم النفسية نحو منتجات السوق وسيكولوجية البيع والشراء والاستهلاك بصفة عامة ، وعلم النفس الجنائى الذى يدرس عوامل الجريمة وأنجح الوسائل لعلاج المجرم ، وعلم النفس القضائى الذى يدرس العوامل النفسية ذات الأثر فى مشتركى الدعوة الجنائية ، وعلم النفس الحربى الذى يدرس سيكولوجية الحرب وما يتعلق بها من رفع الروح المعنوية بالجيش ومحاربة الاشاعات والدعايات وكيفية مواجهة المفاجآت ، وعلم النفس التربوى الذى يستهدف حل ما يعترض الميدان التربوى والتعليمى من مشاكل متعددة .

(١) مصطفى محمود ، المرجع السابق .

ومن خلال هذا التحليل السريع لميادين علم نفس نرى أنه دراسة للسلوك الانسانى وتطبيقاته فى سائر مجالات النشاط المعاصر ، واذا لاقت آراء « فرويد » فى التحليل النفسى رواجا فى مجال الفكر السيكولوجى أول الأمر ، فقد استهدفت اليوم لانتقاد شامل لا من خصوم « فرويد » فحسب وانما من تلاميذه ومؤيدى المدرسة التى أسموها « مدرسة التحليل النفسى الجديدة » كما أشرنا وقد كانت آراؤه عن المرأة أكثر ماتعرض للنقد والتجريح بل والاستخفاف فهو يعتبرها مخلوقا متناقض الاتجاهات والسلوك تغرم بتعذيب الذات حينا وبالاعجاب بها الى حد العبادة حينا آخر ولهذا فهى — فى رأيه — أكثر من الرجل عرضة للأمراض العصابية القهرية Neurosis ، وأن سر افتقارها الى الشخصية الأخلاقية التى يتميز بها الرجل ينبع من غيرتها من تمتع الرجل بعضوا لتذكير وحرمانها هى منه ، ومن ثم تصاب بما يسمى « عقدة الاخصاء » ولهذا ينتابها شعور يسميه فرويد « بحسد عضو التذكير » يرجع اليه العديد من سلوك المرأة ، ويرد معظم آمالها وطموحاتها الى رغبتها فى تعويض فقدها لهذا العضو الهام[1] . — وقد تعرضت أخيرا مجلة رابطة التحليل النفسى الأمريكية Journal of the American Psycho-analytic Association لأن تحمل لواء معارضة « فرويد » ومراجعة نظرياته ومناقشة اتجاهاته وبيان مابها من تهافت وبعد عن المنهج العلمى السليم .

وقصارى القول ان لعلم النفس جذوره المنهجية كعلم ثابت الاركان واضح البنيان ، ولايضيره ان كانت بعض مدارسه واتجاهاته لها آراؤها الخاصة التى قد يثبت أو ينفى العم صحتها ، فهذا شأن سائر العلوم الانسانية التى تلتقى عند نتائج واحدة ، وانما تتعدد فيها الآراء والاتجاهات المنهجية باختلاف العلماء ومايستخدمونه من مناهج البحث وصولا الى القاعدة أو النظرية .

ثانيا : علم النفس والاسلام :

تؤكد الأبحاث التى أشرنا اليها أن لعم النفس « علميته » من خلال

(١) أحمد أبو زيد ، ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع مجلة عالم الفكر ، المجلد ٨ العدد ١ ، وزارة الاعلام ، الكويت ، يونيه ١٩٧٧ ص ٢٣٧ .

اصطناعه للمنهج العلمى الذى يعالج دراسة السلوك البشرى معالجة موضوعية ، ومادام الأمر كذلك فان الاسلام لايقف فى سبيل تحصيل العلم فى ذاته وانما يحث على طلبه ويدعو اليه ابتغاء الوصول الى الحقيقة ، قال تعالى مخاطبا نبيه الكريم « وقل رب زدنى علما »[١] وقال تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون »[٢] ، وقد كان علماء المسلمين أول من نادى باصطناع المنهج التجريبى الذى نقله علماء الغرب عنهم — كما سنشير بعد — وقد ألف العديد من علماء المسلمين كتبا ورسائل فى فضل العلم والدعوة اليه والحث على تحصيله ومن هؤلاء أبو عمر يوسف بن البر النمرى الشهير بالقرطبى[٣] وابن قيم الجوزية[٤] والامام زين الدين عبد الرحمن ابن رجب الحنبلى[٥] والذى أورد فى رسالته من المأثور عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله « العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وقد يقال ان العلم الذى دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام كان المقصود به ما يتصل بعلوم الاسلام والتفقه فيه . ونقول : انه اذا كان هدف دراسة السلوك البشرى — كموضوع النفس — هو الوقوف على طبيعة النفس الانسانية وفهم كنهها وابداع الله جل وعلا لتكوينها والهامها فجورها وتقواها فان ذلك لمن أهم الأمور التى يدعو اليها الاسلام ويرغب فيها وينادى بها . قال تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »[٦] والتبصير بالنفس لايكون الا بدراستها وفهم حقيقتها وصولا الى عظمة ما أبدعه الله جل وعلا فى الكون والنفس معا ، بل أنه يمكننا القول بأن علم النفس هو أقرب العلوم السلوكية الى روح الاسلام لأنه يعالج دراسة السلوك

---

(١) سورة طه الآية ١١٤ .

(٢) سورة الزمر الآية ٩ .

(٣) وذلك فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغى فى روايته وحمله » .

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الشهير بابن قيم الجوزى وذلك فى كتابه « دار السعادة ومنشور ولاية والارادة » .

(٥) وذلك فى رسالته « شرح حديث أبى الدرداء فيمن سلك طريقا يلتمس به علماء »

(٦) سورة الذاريات الآية ٢١ .

الانسانى من جانبيه المادى الذى يتجلى فى دوافع الانسان الفطرية ، واللامادى الذى يتمثل فى قيمة وأخلاقياته وعواطفه وانفعالاته ، فالاسلام دين الفطرة للانسان فى ازدواجيته الجسمية والروحية معا ، يرفض الرهبانية الخالصة « لا رهبانية فى الاسلام » كما ينأى عن المادية الخاصة « فليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ولهذا نستطيع القول بأن علم النفس استفاد كثيرا من حقائق الرسالات السماوية ومن الدين أكثر من أى موضوع آخر ، وتتعدد مفاهيم النفس فى القرآن الكريم كما يلى :

أولا : النفس الشهوانية : وتعبر عن مجمل الرغبات والأهواء والشهوات التى تدعو الى المحرمات ، قال تعالى « ان النفس لأمارة بالسوء الا مارحم ربى »[1] ويقول جل وعلا « بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل »[2] ، والنفس بهذا المفهوم أصبحت مجالا خصبا لكثير من الدراسات السيكولوجية التى نتصل بالغريزة Instinct أو الدافع[3] Motive على أساس أن الدافع قوة محركة وموجهة فى آن واحد سواء كان هذا المحرك داخليا أم خارجيا ، ماديا أم اجتماعيا ، سلبيا أم ايجابيا .

والنفس بهذا المفهوم فى القرآن الكريم تتفق غايتها مع مفهوم الشيطان من

---

(١) يوسف ٥٣ .

(٢) يوسف ١٨ .

(٣) يرجع مفهوم الغريزة الى « وليم ماكد وجال » الذى يعرفها بأنها « كل ما هو موروث أو فطرى من الأوضاع الجسمية أو النفسية للانسان » ويعرفها « واطسن » بأنها نموذج من سلوك موروث تتكون عناصره من حركات العضلات المكونة فى النسيج العصبى والتى تظهر كمجموعة أولية تحت شروط استثارة معينة

Watson, J.B. Psych-from the Stand point of the Behaviorist, Philadelphia Lippincott, 1927 pp. 262-263

ويرفض علماء النفس المحدثون لاسيما التجريبيون منهم استخدام كلمة الغريزة الا فيما يتصل بالجانب الحيوانى دون أن تكون مصدرا لمجموعة ظواهر سلوكية تكون الغريزة دافعا لها ، ويفضلون استخدام « الدافع » باعتباره عملية « نفسية عضوية » يفترض قيامها لدى الكائن الحى لتعليل سلوكه تعليلا جزئيا ويندرج تحته مفاهيم « الرغبة » و « الحافز » و « الحاجة » و « الاهتمام » راجع : يوسف مراد . مبادىء علم النفس العام ط ٣ ، ١٩٦٢ ، واحمد عزت راجح . أصول علم النفس . مرجع سابق ص ٧٥ .

حيث أن كليهما يأمر بالغواية والضلالة ، ويقول الامام البوصيرى فى « البردة » :

وخالف النفس والشيطان واعصهما   وان هما محضاك النصح فاتهم

ثانيا : النفس اللوامة : وهى التى تعبر عن قوة الردع للشهوات فى الانسان ، والارتفاع به عن درك الفساد والعصيان ، قال تعالى « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة »[1] أنها كثيرة اللوم لصاحبها مهما اجتهد فى الاحسان تقربا الى الله سبحانه وتعالى ولجوءا اليه وتحرجا من الوقع فى أية معصية ، ويقابل هذا المفهوم القرآنى مايسمى بالأنا الأعلى Super -Ego فى علم النفس التحليلى حيث أصبح محورا لكثير من دراسات التحليل النفس وعلم النفس الاخلاقى ، ويرفض التفسير الاسلامى رفضا باتا مايدعيه « فرويد » من أن قسوة الأنا الأعلى أو الضمير لاينشأ الا لدى المرضى النفسيين حيث يرتد هذا الأنا الأعلى — فيما يدعى — ناكصا على عقبية الى مراحل مبكرة من النمو النفسى ، وبهذا يعمل على اذلال « الأنا » — وهو جزءا التنظيم النفسى الذى يدرك العالم الخارجى — لتحطيمه وتدميره حتى يدفعه الى الانتحار[2] ثم يشير « فرويد » فى ادعائه الى أن بعض فئات المجرمين يدفعهم تزايد احساسهم اللاشعورى بالاثم نتيجة قسوة « الأنا الأعلى » الى ارتكاب الجريمة التماسا للعقاب ووسيلة للتفكير[3] وهذا افتراء لا يستند الى دليل علمى ، لأن الضمير أو النفس اللوامة لاتتجلى الا فى أقوم حالات الصحة النفسية لدى الانسان الذى يعيش بهذه الرافضة لأى انسياق وراء الشهوة أو حتى الشبهة فيها ، تذكره بما ينبغى أن يكون وتوقفه عن العض فى ارتكاب الذنب أو حتى التفكير فيه أو مجرد الشعور بارتكابه ، كما تشعره بمرارة الأسى لما ارتكب من اثم ، وهنا يتجلى « وخز الضمير » فى أوضح صوره ، أى أن النفس اللوامة رقيب داخلى على تصرفات الانسان تحول بينه وبين ارتكاب الاثم من ناحية ، وتدعوه لاعلان التوبة عندما ينزعه من الشيطان نوع من ناحية أخرى ، وهى بهذا تقف على طرفى نقيض مع النفس الشهوانية التى تسول

(١) القيامة ١ ، ٢ .

(2) Freud, S., The Ego and The Id. Standsrd Edition. Vol XI, London 1923 p. 51

(3) Ibid, p. 52

للانسان الشر وتدعو اليه ، والى هذا يشير أمير الشعراء « أحمد شوقى » فى « نهج البردة » يقول :

والنفس من خيرها فى خير عافية　　　والنفس من شرها فى مرتع وخم

ثالثا : النفس العاقلة المطمئنة : وهى النفس الهادئة العاقلة المنطقية فى تصرفاتها وأحكامها ، يقول الله تعالى « يأيتها النفس المطئنة ، ارجى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »[1] انها النفس التى تدرك العالم الخارجى والبيئة المحيطة بالانسان ، ويقابل هذا المفهوم القرآنى فى علم النفس الحديث مايسمى « بالذات الشعورية » أو « الأنا » Ego ، وتعمل النفس العاقلة المطمئنة على تحقيق توافق الانسان مع بيئته منسقة بين رغبات النفس الشهوانية واللوامة معا ، فهى تقف بينهما وتختلف عنهما ، تختلف عن النفس المسولة التى تدفع الانسان للوقوع فى المحرمات ، وعن النفس التى ترتفع به عن دنايا الشبهات ، ولهذا تتعرض الى هزات من النفس الأمارة بالسوء ، ولكنها تعمل على كبح جماحها ، والوقوف حيال رغباتها ، ولاتفعل هذا الا اذا كان لدى الانسان نفسه خلفية عميقة وقوية من التربية الاسلامية يتلقاها الناشىء عن الأسرة والمدرسة والحى والبيئة والثقافة معا .

وينشأ ناشىء الفتيان منا　　　على ما كان عوده أبوه

أما اذا كانت « الأناه ضعيفة ليس لديها هذا السياج القوى من التربية الاسلامية فلمن تستطيع أن توازن بين رغبات النفس المسولة وعالم الواقع ، أى تعجز عن التحكم فى شهوات الانسان ونزعاته مما يجعل أمثال تلك الدوافع مثار تهديد ووعيد لأمن هذه « الذات الشعورية » .

ثالثا : اعلاء الدوافع وهدى الاسلام :

مما سبق يتضح أن علم النفس ليس ماديا مغرقا فى ماديته كما ينتقده معارضوه . وانما تهدف تطبيقاته العملية الى الأعلاء أو التسامى Sublinaton

(1) الفجر ٢٧ — ٣٠ .

بدوافع الانسان ونزعاته الفطرية هذا التسامى الذى يعد أهم خصائص الانسان ، واذا كان علماء النفس والمصلحون الاجتماعيون ينادون الشباب بخاصة والانسان بعامة لممارسة الرياضة البدنية والفن والقراءة والزواج والخدمة الاجتماعية ومختلف صور النشاط الاجتماعى ، فان الرسول عليه الصلاة والسلام سبق هؤلاء جميعها بأربعة عشر قرنا حين نادى الآباء وأهاب بهم أن يعلموا أبناءهم فنون الرياضة فقال عليه السلام « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » وكذلك حين أهاب — عليه الصلاة والسلام — بالشباب أن يتزوجوا فان لم يستطيعوا فعليهم بالصوم فقال « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء »[1] أى وقاية وفى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام الشباب للصوم تربية على قوة الارادة ومغالبة النفس الشهوانية والانتصار عليها وبالتالى تدريب على تحمل الصعب . وارتفاع بالنفس عن ارتكاب الاثم وتمرين لها على البعد عن فحش القول أو انحراف الفعل ، قال عليه الصلاة والسلام « الصيام جنة ، فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فان سابه أحد أو قاتله فليقل انى صائم انى صائم »[2] واذا كانت غاية علم النفس هى تفسير سلوك الانسان تفسيرا علميا موضوعيا يوقف الانسان على معرفة نفسه وادراك ابعادها الا أن معرفة الشيء أساس التحكم فيه والتنبؤ به والسيطرة عليه ، وبهذا يستطيع الانسان من خلال معرفته نفسه بنفسه السيطرة على جموح الشهوة وثورة النزوة فى اطار التوافق مع القيم والعقيدة والمجتمع معا . قال تعالى « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[3] وتزكية النفس تطهيرها والسمو بها عن الاستجابة للشهوات دون ضابط أو رقيب ، وحين يعلى المسلم دوافعه بهدى الاسلام فانه يحقق تقوية العزيمة ، وضبط النفس ، والسيطرة على الشهوات ، وفى هذا أسس تكوين الشخصية الاسلامية السوية فى أقوم صورها .

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه البخارى .

(٣) الشمس ٧ — ١٠ .

رابعا : العلاج النفسى ومنهج الاسلام :

اذا كان علم النفس العلاجى يعتمد أساسا فى علاجه على تشخيص الحالة المرضية ، ثم استخدام الطرق النفسية العديدة لتخليص المريض من وطأة أعراض مرضه ومساعدته على حل مشاكله ، وإعادة توافقه مع بيئته عبر خطوات علاجية عديدة كالتنفيس الانفعالى Catharsis والاستبصار بالذات Self-imsight فى محاولة لافهام المريض دوافعه أو مصدر متاعبه أو تجديد التعليم reeducation بطريقة سليمة متى أصبح قادرا على معرفة مشاكله ، فانه يمكننا القول بأن المنهج الاسلامى فى علاج النفس يستخلص من روح الاسلام وجوهر تعاليمه السمحة فيما يلى :

١ ــ لقوة ايمان المسلم بربه وعمق يقينه بدينه أكبر الأثر فى مواجهة الصدمات والكوارث بصدر رحب ونفس راضية ، ونظرة هادئة مؤمنة من النفس المطئنة « الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وإنا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »[١] وذلك لأن من أسباب اضطراب الشخصية الصدمات الانفعالية القوية ، والأحداث الاليمة ، والاضطرابات العميقة فى العلاقات الانسانية والتى يجد المسلم القوى الايمان علاجا لها بصبره وامتثاله لأمر ربه وانخراطة فى عبادته تعالى من ناحية ، وسعيه لتحصيل الرزق وأسباب الحياة من ناحية أخرى .

٢ ــ العودة الى الايمان بالله واتباع هديه وتقواه حين يكون مبعث الصراع النفسى هو الانغماس فى الشهوات والأفكار المادية والانحرافات الخلقية ، ذلك لأن الانسان بفطرته يحس فى أعماق نفسه أنه بحاجة الى القوة المعينة ، والاشراقة الهادية والسكينة المطمئنة والتى لاتتوفر الا فى الايمان العميق بالله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون[٢] وليس أدل على ذلك من أن المريض الذى يبرح به الالم ،

---

(١) البقرة . ١٥٦ ، ١٥٧

(٢) الروم ٣٠

وراكب البحر الذى يشرف على الغرق ، والمظلوم الذى لايجد نصيرا يرد اليه الحق ، والأم التى يئست من شفاء وحيدها ، هؤلاء جميعا — حتى ولو كانوا غير مؤمنين بالله تعالى — انما يتضرعون اليه جل وعلا ولا يدعون أحدا سواه « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه »[1] — وبهذا تكون العودة الى الايمان واللجوء الى حظيرته علاجا للنفس الضالة فى متاهة الماديات .

٣ — التوبة الى الله تعالى بالنسبة للانسان المذنب الذى تتفكك شخصيته نتيجة شعوره بوطأة ذنوبه وعظم آثامه . وذلك لأن التوبة مدخل الى طلب المغفرة من الله تعالى ، وفيها يجد الانسان متنفسا للمشاعر الثائرة الناشئة عن ارتكاب الفعل الذى يتنافس مع القيم والأخلاق الكريمة من ناحية ، وأوامر الدين ونواهيه من ناحية أخرى .

ويقول الامام الغزالى « اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة ، علم وحال وفعل ، الأول موجب الثانى ، والثانى موجب للثالث ايجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت »[2] .

ويفسر الامام الغزالى العناصر الأساسية الثلاثة فيرى أن « العلم » هو اعتراف كامل بعظم ضر الذنوب التى اقترافها الانسان على أساس انها حجاب بين العبد والرب ، وفى هذا الاعتراف نوع من تفريغ التائب بطاقاته الانفعالية الضاغطة على نفسه ، كما أن فيه تسكينا لمشاعر الاثم التى تهدد الاثم وبالتالى تفتح أمامه أبواب الأمل العريض فى شفاء النفس وتطهيرها وتصفية المذنب حسابه مع ربه القائل « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عبادة »[3] وبذلك يشعر التائب بالراحة النفسية ويستعيد تكامل شخصيته بعد أن عاش حالة من الضياع والتفكك النفسى ولكن هذا لايكفى فى رأى الامام الغزالى لتتم التوبة فلابد أن يتعلق المذنب

---

(١) الاسراء ٦٧

(٢) احياء علوم الدين للامام الغزالى الجزء الرابع ، دار المعرفة للطباعةوالنشر . بيروت ص ٣

(٣) التوبة ١٠٤ .

بالحال ، ويفسر هذا بقوله « أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا . وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر ، وأما بالماضى فبتلاقى مافات بالخير

ومعنى هذا أن التوبة لابد أن تكون توبة نصوحا فلا يكفى أن تكون « هنا » و « الآن » فحسب وانما يشترط عقد العزم على أن تكون توبة دائمة فى الحال والاستقبال معا .

وتقترن التوبة فى الاسلام كأسلوب للعلاج النفسى بأمرين أساسيين هما

١ ــ تصفية الماضى كله وعقد النية على التوبة المطلقة ، وذلك بعدم العودة الى المعاصى أبدا .

٢ ــ انتهاج المنهج القويم فى العمل والسلوك وفى المعاملة والعلاقات بين الناس طبقا لمنهج الاسلام الحنيف فى العقيدة والشريعة معا[١] ، وفى هذا يقول الله تعالى « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، ان ربك من بعدها لغفور رحيم »[٢] .

ويرى الامام الغزالى أن التوبة طبقات بحسب موقف التائبين أنفسهم كما يلى

الطبقة الأولى : التوبة النصوح :

وتقوم بها النفس « المطمئنة التى ترجع الى ربها راضية مرضية ، يتدارك بها صاحبها مافات منه ويستقيم على التوبة حتى آخر العمره ، دون أن تحدثه نفسه بالعودة الى ذنوبه مهما صادفه من مغريات ومثيرات فهذا هو المستقيم على التوبة السابق بالخيرات ، وهو من الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات .

الطبقة الثانية : توبة النفس اللوامة :

وهى أقل درجة من سابقتها يسلك تائبها طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات

(١) محمد البهى ، من مفاهيم القرآن فى العقيدة والسلوك ، القاهرة ١٩٧٣ ص ١٦٨ .
(٢) النحل ١١٩

وترك كبار الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وان اغترته بعض ذنوبه لاينفك عنها عن غير عمد وقصد وانما يبتلى بها بين الفنية والفنية ولكن سرعان مايندم ويأسف ويجدد عزمه على التوبة ، ويرى الامام الغزالى أن تلك حالة تمثل أغلب حالات التائبين لأن الاثم مرهون بفطرة الانسان قلما ينفك عنه ، وغاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجع كفة حسناته ، ولؤلاء حسن الوعد من الله تعالى « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ، أن ربك واسع المغفرة »[1] . وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما روى عن الامام على كرم الله وجهه « خياركم مفتتن تواب » .

الطبقة الثالثة : تُوبة النفس المسولة

وهى توبة يقوم بها المذنب لحين ، ولكن تغلبه الشهوات بعد ذلك فيقدم عليها عن عمد وقصد لعجزه عن قهرها الا أنه رغم هذا يواظب على طاعات الله ، ويترك العديد من الذنوب ، وان لم يستطع أن يتغلب على بعضها ، ولهذا يود ان لو أقلع عنها وعزم على التوبة والتخلص منها وكفايته شرها ، فاذا اقترفها ندم ، وتمنى أن لو أقلع عنها وعزم على التوبة ومجاهدة النفس . وهكذا تدفعه نفسه المسولة لاقتراف الذنب مرة بعد أخرى . يقول الله تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم »[2] .

الطبقة الرابعة : توبة النفس الأمارة بالسوء :

وهى التوبة لحين ينهج صاحبها طريق الاستقامة ، ثم تسول له نفسه الأمارة بالسوء العودة اليها والانغماس فيها دون أن تحدثه نفسه بتوبة أو حتى ندم على فعل بل ينهمك فيها مصرا عليها غافلا عن أوامر الله ونواهيه ، وبهذا يخشى على صاحبها سوء الخاتمة وأمره معلق بمشيئة الله[3] ، وهى نفس تحتاج لعلاج اسلامى يقف فيه

---

(١) النجم ٣٢

(٢) التوبة ١٠٢

(٣) الاحياء مرجع سابق .

المعالج موقفا ايجابيا بالنسبة لمن يعالجه عن طريق ذكر الحقائق الدينية العديدة التى ترتكز عليها عملية العلاج حتى يثوب المذنب الى رشده ، ويتوفر له التفكير عن ذنوبه والعودة الى توبته توبة نصوحا لانكوص بعدها .

بهذا يتضح المنهج الاسلامى فى علاج النفس عندما يكون تفكك الشخصية ناشئا عن اهتزاز العقيدة أو انكار الايمان بالله أو ثقل الذنوب أو الانغماس كلية فى دنيا المادة ، وذلك بالعودة الى فطرة الايمان بالله تعالى ، وترسيخ العقيدة فى النفس ، والتوبة من الآثام ، ومجابهة الكوارث والآلام بالصبر العميق والرضا بقضاء الله الذى لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، ويرجع هذا الى « ان الدين الاسلامى هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، الدين الذى يجمع بين الحياة والآخرة ، بين الجسد والروح ، بين الايمان والعمل ، ولايضحى بأى منهما فى سبيل الآخر ولهذا كان الدين الصالح لكل زمان ومكان « ان هذا الدين يهدى للتى هى أقوم »[1] .

وإذا كان بعض المفكرين المسلمين يفتنون بمناهج البحث العلمى التى يستخدمها علماء النفس الغربيون على أساس أنها ابداع لم يتح للعلماء المسلمين ، ومن ثم يدعون لتقبل الحقائق السيكولوجية التى يصل اليها هؤلاء المفكرون الغربيون برمتها دون عرض أو نقاش أو تمحيص . نقول : ان هذا وهم خادع لأن الاجتهاد الفكرى لا وطن له ، بل أن هؤلاء نقلوا بدورهم جوهر المناهج التجريبية عن العلماء المسلمين فى العصور الوسطى أى أن تلك المناهج العلمية كانت ابداعا عربيا اسلاميا ، فقد سارت الحضارة الاسلامية على نهج سليم لايتصل بالجانب الاستنباطى فحسب ، وانما يرتبط بالجانب الاستقرائى المتصل بالكون والحياة وكان نتاجها دفعا بالحياة والبشرية الى التقدم .

وفى الوقت الذى أصبح الاجتهاد والرأى فى الاسلام ــ منذ نشأته ــ مصدرين من مصادر التشريع فان أوربا لم تصل الى هذا المستوى الا بعد ألف عام.

---

(١) الاسراء ٩ .

حين قامت حركة « مارتن لوثر » فى أوربا والمعروفة بحركة الاصلاح الدينى تنادى بحق التفكير وفهم النصوص الدينية .

واذا أرجع الغربيون جذور المنهج العلمى التجريبى لكل من « روجر بيكون » وخلفه « فرنسيس بيكون » فان الأول لم يكن الا حاملا للمنهج العلمى الاسلامى الى أوربا المسيحية ، الحقة ، ولم يستق « روجر بيكون » علومه الا من الجامعات الاسلامية فى الأندلس ، بل أن القسم الخامس من كتابه الذى ألفه فى البصريات لم يكن حقيقة الأمر سوى نسخة من كتاب « المناظر » لابن الهيثم[1] .

وبعد ، فما أحرانا بدل القول بأن علم النفس ليس بعلم على الاطلاق — وقد أصبح من أهموأوسع العلوم انتشارا فى الجماعات والمعاهد على مستوى العالم — أن نجد فى البحث عن آراء واتجاهات علماء المسلمين فيما يتناوله هذا العلم من موضوعات وقضايا ، والبحث عن أسس ودعائم بناء الشخصية الاسلامية فى القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام لنقيم بذلك صرح مايمكن أن نطلق عليه « المدرسة الاسلامية فى علم النفس » على غرار ماينادى به علماء الاجتماع اليوم من قيام « علم اجتماع اسلامى » وعلماء الاقتصاد فى « علم اقتصاد اسلامى » وذلك فى اطار البحث العلمى المتأنى حتى لانتهم بالجمود والتخلف فى الوقت الذى يدعونا الاسلام فيها لتحصيل العلم والسعى اليه والاهتمام به « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون »[1]

والله الموفق ،،،،

---

(١) محمد اقبال . تجديد الفكر الدينى فى الاسلام ، مترجم ص ١٤٨ .

المراجع

١ـالقرآن الكريم .

٢ ـــ أحمد أبو زيد : ماذا يحدث فى علوم الانسان والمجتمع ؟ ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ٨ العدد الأول ، وزارة الاعلام ، الكويت ١٩٧٧ .

٣ ـــ أحمد عزت راجح : أصول علم النفس ، دار المعارف (ط ١٠) الاسكندرية (بدون تاريخ)

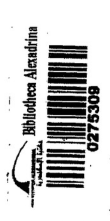
٤ ـــ محمد عماد الدين اسماعيل : المنهج العلمى وتفسير السلوك ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٠

٥ ـــ مصطفى محمود : « كلهم يعبدون العجل » مقال بجريدة أخبار اليوم ـــ القاهرة ٣١ يوليو ١٩٧٦ .

6 - Einstien A.; Eneled L. The evolntion of physics, Reference Book. U.K., 1952.

7 - Murphy, Future of Social psyoholgy in historical perspective., Holt Rinehart, 1965;

8 - Watson, J.B., Psych-from the stand Poiny of the behaviorist. philadephia Lippincott, 1927.



دار المطبوعات الجديدة

تليفون ٤٨٢٥٥٠٨ اسكندرية